مسقط قلوبنا

تأليف

جبريل محمد سعيد

الطبعة الأولى
1440هـ/ 2019م

جبين
للطباعة والنشر والتوزيع

I.S.B.N.

978-9959-1-2063-2

إهداء

جبريل محمد سعيد

مقدمة

في موسم الربيع دفع لي شاب من مدنية (شحات) بباقة من القصص التي صاغها بطريقة مغايرة للكتابة المعهودة طالباً مني أن أضع لها مقدمة، طالعت المجموعة فأحسست بكل إخلاص بل تأكد لي بأن المؤلف (جبريل محمد سعيد) يملك نفساً في مواصلة وتتبع مادته بطفرة من حيوية الشاب الذي يكتب لأول مرة وفي الواقع فإن العمل لا يعتبر (بداية) بل يتعدى ما نسميه (بداية) إنه عمل يتعدى مرحلة المران إلى وضع القدم على درب مهنة الكتابة.. جبريل محمد سعيد يجيد تناول الحوار إلى آخر مدى، ويسري عبر المتن خيط يشد فلسفة الأمور.

في هذا العمل يخوض المؤلف في ميدان تحويل الأحداث التاريخية إلى أعمال أدبية كما هو الحال في قدوم (باتوس) مؤسس قوريني حيث نسمع أصوات عجلات العربات ونتأمل خيولاً أصيلة ومسارح واسعة وأعمالاً مفيدة وكماً هائلاً من الأعمال النفيسة التي نهضت في زمن مدينة عظيمة من السماء.

إننا أمام طابع من التأليف يأخذ نسقاً متميزاً يقع بين (الرواية القصيرة) و (القصة الطويلة) إن أفلح القول، وفي جانب الموضوع الذي يتناول المؤلف فإننا نراه يسكب قسطاً ظريفاً في فلسفته تجاه الحياة.

أن يكتب شاب مبتدئ هذا العمل الذي يفوق مرحلة (البداية) و (مرحلة المران) لهو إنجاز يستحق الإكبار لأنه حسب اعتقادي يبشر بقلم واعد

وكاتب سوف تكون له مكانته في دنيا الكتابة التي تتطلب دون شك جهداً جهيداً بالالتزام بالاطلاع المستمر والمران دون كلل.

إنني بكل اخلاص أثمّن هذه البداية التي تعدّت وفاقت ما يعرف بالبداية.

(داود حلاق)

شحات – مارس ٢٠١٣م

(١)

اختفى نصف الشمس وراء خط الأفق وشرع الظلام بالزحف والانتشار كانت الحمرة طاغية على سماء تخللتها بعض السحب الرشيقة المتناثرة، والتي كانت أطرافها تسطع من وقع أشعة الشمس الغاربة عليها.

من على شرفة الغرفة حط زوج من الحمام، وتسرب هديل إحداهن إلى الداخل، فأيقظ ذاك الصوت الوديع الهادئ باتوس - ملك قوريني (شحات. ليبيا) ومؤسسها سنة ٦٣١ ق. م - من إغمائه المفاجئ الذي اعتراه في الصباح إثر وعكه صحية.

فتح عينيه وبعد جهد مديد استقر أخيراً على طرف السرير الفاخر، كان يتنفس بصعوبة، حلقه جاف، وقلبه ينبض على عجل وكأنه يهرب من الموت. فالعمر قد ناهز السبعين والجهد قد ذرف حتى الجفاف.

استدار ببطء قاهر وأجال النظر ليتفحص غرفته المترفة فشده الفضول بمعاونة بقايا همة كانت أوجاً ذات صبى. على الجدار البارد قابله ظله الذي نسجت قتامته الأنوار الخافتة للغرفة، ابتسم في شجون وراحت خيالاته بعيداً.. إلى أقرب شيء لقلبه، حين كان طفلاً وسط دفء عائلته في جزيرة ثيرا، ووقتذاك كان يتبع ظله أينما حلّ، وتذكر شبابه وهو يعد العدة للإبحار إلى قوريني وكيف أينعت على يديه وكيف أمسى ظله وراءه يتبعه أينما ذهب، أما الآن في ذلك المساء الخريفي كانا يقفان وجهاً لوجه هو وظله، وكل منهما يترقب بشغف من الآخر الوقوف للحياة من جديد.

استرجع أيام طيشه وصباه، تلك الأيام التى تأبى النسيان، تلك الأيام التي يمكنك أن تحلق في سمائها من دون أجنحة، وأن تموت مرات ومرات، وتحيا فيها مراراً وتكراراً.

اكتشف بأن ذكرياته قد أصبحت أكثر بكثير من أيامه، وأنه قد تغير كثيراً عن ذي قبل. فيكفي المرء أن يعود إلى ذاكرته ويرى ما الذي تبقى فيها لكي يتأكد من أنه قد تغير.

جسد هزيل وأفكار قد فقدت ثقتها بالأيام، ناظران غائران لم يعودا يريان سوى الماضي، لأمجاد ماعادت تتحقق إلا في أحلامه، أضحى غنيمة لماضيه بعد أن كان المستقبل غنيمته. اخترقت التجاعيد وضاء شجاعته وقوة جلده وانتهى الزمن من وضع لمساته الأخيرة على محياه. اكتسى شعره المتجعد، ذو اللون الأسود، الذي كان يعكس أي ضوء يلامسه نصاعة اللؤلؤ، باللون الأبيض، أما حاجباه فقد أضحيا كثيفين وبارزين، وكانا يتدليان كما يتدلى حظه في الأيام القادمة. كان أنفه أفطس، لحيته كلون الثلج، هيئة جسمه متناسقة ليس بالطويل الفارع وليس بالقصير، ليس بالنحيف وليس بالبدين، تساوت فيه الأضداد، والتقت فيه الأمجاد، تتزاحم عليه الفضائل، خصاله عـديدة.. أرقاها تواضعه وهو الملك المطلق، ورحمته وهو المشرع الوحيد، مطاع ومطيع، يأمر ولا أحد يرفضه حباً له، لم يحرم شعبه فلم يحرم من السعادة، وضمن لشعبه الأمان فضمن له الشعب الهدوء.

عدل جلسته وقد انتابه اشتياق مفاجيء لأمه وأبيه البعيدين جداً، حين رأهما أمامه متجسدين بتمثالي برونز، كانا يلمعان من سقوط نور

الشموع عليهما، يقابلان سريره، كما يقابلان ذاكرته مذ تركهما في جزيرة ثيرا (سانتورين الحديثة). وحن إلى زوجته وأبنائه وأحفاده، وكأنه لم يرهم منذ سنين، رغم أنهم معه في ذات القصر، سالت دموعه ببطء على خديه اللتين قهرهما طول الزمن، هو لم يكن حزيناً، بل كان مشتاقاً لنفسه التي لم تعد تقوى على الإستمرار، والتي لطالما أرهقها كما أرهقته، ونال منها كما نالت منه، وأيضاً خدعها كما خدعته.

لم تعد الحياة تروق لباتوس، وفي ذات الوقت لم ترق له فكرة الموت، كان يدرك بأن الوقت لم يعد يتسع للسعادة بعد اكتظاظه بالأحزان، وكان يؤمن بالمستحيل رغم فوات أوانه واختفاء روائح الغد وتلاشي أضواؤه. الذاكرة، لاغير، كان بوسعها أن تفتح له أبوابها، ليس لإكمال ما تبقى من حياته فيها، بل لكي يطمئن على نفسه إن كان قد عاش حقاً أم لم يعش، إن كان قد أخذه الحياة بجدارة، أم أنها مرت كمرور السحاب.

هكذا كان يؤمن بأن الطريق الذي اتخذها في حياته هي الأجدى، وهكذا فاجأته الأيام دون هوادة بحقيقة ضياعه.

هكذا كان يأمن جانب الحياة للبقاء فيها أكثر وقت ممكن. وهكذا أحب، وظن أنه يحب، وتيقن بأنه لم يكن يحب سوى نفسه. وكل ذلك من أجل ماذا..؟ من أجل صنع ذاكرة خاصة تليق به ليقول في النهاية أنه قد عاش وكان هنا، لكن كيف؟.. ومتى؟.. وأين؟ هذا ما سيظل سراً لاعـلاقة للآخرين به، حتى وإن كانوا هم أنفسهم وراء ذلك.

هكذا مرت حياته لحظة بلحظة، وزال كل شيء وآل إلى ميلاده، إلى اللحظة الأولى، التي حدد فيها خياراته في تمضية حياته.

كلما راق له حال كان يسأل نفسه، لماذا ولدت؟ ولماذا ولدت ذلك اليوم تحديداً، وتلك اللحظة بالضبط، ومن ذلك الأب، وتلك الأم دون غيرهم؟ وإن كنت قد ولدت وانتهى فلماذا أموت إذاً؟ هـل نحن مجرد تجربة لأناس حقيقيين سيعيشون من بعدنا في الدنيا؟ أم أن الدنيا مجرد تجربة لنا كي نعيش حياتنا الحقيقية في الآخرة؟

يعود إلى نفسه فتعود ذات الأسئلة المحيرة، هـل خُلقنا عبثاً؟ أم نحن من خلقنا العبث؟

هل منحنا الله تعالى أرواحاً هكذا دون مقابل؟ ألم ندرك بعد بأن هناك رسالة ما في قلوبنا استلمناها وقت ميلادنا وتحتم علينا إيصالها إلى قبورنا..! ألم نشعر يوماً بأن قلوبنا تحمل مايخصنا لأجل الآخرين..!

وترى كم عدد الذين أوصلوا تلك الرسالة وأدّوا ما عليهم..؟ وكم عدد الذين أضاعوها في منتصف الطريق..؟ كم عـــدد الذين استبدلوها..؟ والذين صمتوا عنها..؟ والذين أنكروها..؟ وكم هو عدد الذين ماتوا من أجلها..؟ والذين عاشوا من أجلها؟

لقد بادر الملك باتوس في حياته بكل جميل.. بكل رائع.. وكان له السبق في ذلك، فقد كان على دراية بأن الوقت ليس في صالحه بادر بالإبتسامة، بالمودة، بمد يد العون، بإدخال السعادة، بانتزاع الحزن، بفك الكرب، ولعمري لم يبقى

له من حياته سوى ذلك، لطالما كان له شرف المبادرة في كل شيء، فلا يوجد في الحياة كلها طعم يفوق روعة المبادرة ولذتها، ولا يوجد أنكى من ندم المبادرة حين يسبقك غيرك عليها.

كان كأول عصفور يطلق شذاه مع جهجهة النور غير آبه ببقايا الظلام والوحشة. وكان كأول نجمة تبزغ في السماء، قوية في حضورها، محيرة في نشاطها، لا يهمها اتساع السماء، بل يهمها اتساع نورها. كان كأول زهرة تتفتح في الربيع، بشرف المجازفة، تقابل البرد بأحلامها العطرة، وبثقة كثقة الصخور الصماء.

وكان كأول نسمة تجتاز البحر صوب الشطآن، صبوره، ذات أمل بعيد، وجهد مديد، وتصميم عتيد، وإيمان عنيد، يتهاوى أمامها كل جزر يحاول إعاقتها. كان كأول قطرة مطر ترمي بنفسها على الأرض، تتلاشى متلألأة، من أجل أن تحيا حقاً. وكان كآخر ورقة، تصفر، وتتهاوى، وهي ترقص رقصتها المعتادة، والتي تهزأ بها من الموت.

***

جن الليل وكان الطقس بارداً وقد تلبدت السماء بسحب ثقال فالخريف في قورينى يشبه شتاءها كثيراً، كان باتوس مضطجعاً على فراشه وتهب عليه الأفكار وتتساقط مع أوراق الأشجار آماله في الحياة، تناهى إلى مسامعه خفق خطى أحدهم قادم نحو غرفته واستطاع بذلك الصوت أن ينقذ نفسه، وينهض بها من بين تلك الهواجس المريبة.

دخلت عليه زوجته فيرا والتي لم يتركها الزمان وشأنها ! شعرها قد أبيضّ، وتجعدت بشرتها، وقد حقنت عيناها بالشحوب، كانت قصيرة القامة، وفي شبابها تفوقت على كل فتيات قبيلتها جمالاً ونسباً، كانت ابنة لسيد قبيلة الآسبست النازلة جنوب قوريني، وكانت أميرة القبيلة، والأميرات دائماً مايكنّ محط إعجاب الجميع، ليس لأنهن حسناوات بل لأنهن جذابات، فثمة حسناوات لايحضين بالاهتمام ولكن لا توجد أميرة لاتحضى باهتمام الجميع، فإثارة الجمال شيء وإثارة الإعجاب شيء آخر، كانت خصالها كثيرة، رقيقة وهادئة، وذات صبر مديد، مفرطة في حب باتوس، فبالنسبة لها كان بمثابة كل شيء ورغبتها في الحياة وملهمها بالرغم من أن زواجهما كان سياسياً بامتياز.

راح بنظره في اتجاهها، وبابتسامة تنم عن سعادتها قالت:

- كيف تشعر الآن؟

تبسم وهو يجذب لحيته ثم أومأ لها قائلاً:

- إنني بحال أفضل - ثم سأل باهتمام أكثر - أين الأولاد؟

- أركسيلاوس خرج منذ قليل مع جابي الضرائب.. وآستاسيوس لم يأت إلى هنا منذ أيام كعادته يتسكع مع رفقاء السوء في الحانات وراء الغانيات.. أما فرونيما في بيتها.

- لم اسألك عن أبنائي بل عن أحفادي..!

فصاحت تقول كما لو أنها اكتشفت شيئاً:

– بل قل باتوس.. لاتراوغ إنك تفضله علينا جميعاً.. أعتقد بأنه قد نام.

أجال نظرة في فراغ السقف المزخرف بالزهور وبينما هو كذلك جلست بجانبه وقالت وهي تداعب الغطاء الوبري الناعم بكفها:

– يبدو أنني أطول منك عمراً.

رفع حاجبيه متعجباً من ملاحظتها وقال:

– كيف استنتجتي ذلك؟

– أنظر لحالك. ثم استطردت بعد شرودها في الغطاء المرقط برهة من الزمن:

– لعلك لازلت تذكر بأنني من سلالة مورينا ودمها يسري في عروقي.

– ومن هي مورينا.. هل هي شيطان؟ كذلك قال لها وهو يتأمل السقف مدعياً بأنه لا يعرفها أو كما لو أنه لم يسمع عنها قط.

فسألته بنبرة كانت تفيض خبثاً:

– ألا تعرف مورينا؟

أجابها بتهكم متظاهراً بثقته:

– كلا..!

– أونسيت أغاني الشعراء عنها؟

مط شفتيه ورفع حاجبيه الكثيفين مبدياً امتعاظه:

- ومن كانوا يقصدون..؟

- إنهم يقصدون الأمزونات تلك السلالة القتالية العنيفة من النساء الليبيات.. اللاتي كن يكوين نهودهن حتى لا تنمو وتعيقهن في القتال.. ملكتهن كانت تدعى مورينا وقد

سطرت بجيشها أروع قصص البطولة والمجد.. أخضعت كل القبائل الليبية ثم امتد

ملكها إلى آسيا الصغرى وسوريا وأخضعت الأطلانطيين وقد كانوا من أكثر الشعوب تمدناً في تلك الحقبة.. ولقد أسست المدن وأسمتها باسمها وبأسماء المقاتلات اللاتي كن يشغلن المناصب عندها.. ولو كنت معها في ذلك الزمن لربما كان اسم مدينتنا فيرا وليس قوريني.

ضحك ضحكة خاطفة ثم سألها:

- لم أسمع بأي رجل في قصتك الخرافية هذه..!

اتكأت على ساعدها وقالت:

- قيل أن كارثة حلت في ليبيا راح ضحيتها أغلب الرجال.. والأمزونات هن زوجاتهم.. وبناتهم.. وأخواتهم.. وحبيباتهم.. وأغلب الظن بأنه عدو أتى لهم من وراء البحر.

فأضاف وهو يهز رأسه بسخرية:

- وتلك النسوة قد ثأرن لهم..!

أجابت والفخر يعتلي هامتها:

- أجل.

- إنه عمل نبيل.

هيمن صمت عميق بينهما. ثم أردف باتوس:

- ولكنك قد اخترت ميدان آخر للقتال وتركت ميدان جداتك..!

فأجابته بحسرة وقد طفح الأسى على وجهها:

- لعل هذا الميدان أشرس بكثير منه.. الأمر في غاية اليسر والفخر حينما تقتل عدواً لكن أن تربي حبيباً فهذا من أصعب الأمور وأقساها.. لا سيما وإن كانوا ابناءك.

هز باتوس رأسه مأخوذاً من كلامها وقال بجدية:

- أتعلمين تربية الابن من أعظم الإنجازات في الحياة وأصعبها.. ما حققته في قوريني من مجد منذ تأسيسها وحتى عامها الحالي لايقارن بنجاحي في تربيتي لأركسيلاوس.. أما فشلي في تربية آستاسيوس لا يضاهيه فشل في حياتي.

همت الأم مدافعه وهي تقول بنبرة حزينة كانت مليئة بالتوسل:

– سيأتي يوم ويفهم.. إن عجزت عن تربيته كما ترى أنت فالدنيا كفيلة بالتربية..

تنهد واجماً وقال بنبرة حزينة يائسة:

– ما كنت أنشده هو تربيتي له.. لأن الدنيا إن شرعت في تربيته فلن تتركه سوى حطاماً.. الدنيا لم تنجبه فمن أين لها الرحمة..!

قطبت عن جبينها ونهرته حين تسرب الفزع إلى قلبها:

– لا تبالغ ياباتوس فليس ابنك بالسيء كما ترى..!

– أنت لست مثلي فما أراه أنا.. أنت لاتحسين به.

زفرت أنفاسها بعنف وقالت:

– آستيا ليس بالسيئ.. إنه بحاجة إلى أن تحوطه بحبك واهتمامك.

لم يعلق على كلامها بادئ الأمر غير أنه سرعان ما استرسل قائلاً:

– المحبة في غالب الأحيان لا تجدي نفعاً.. كل الأباء يحبون أبناءهم بنفس الطريقة.. هي علاقة بين الأب وابنه فقط.. وبالتالي هي ليست معياراً للتقييم فالمعيار الحقيقي هو في التربية لأنها علاقة بين الأبن والآخرين.

قالت بفزع:

– ولكن علاقته بالآخرين جيدة.. ولا علاقة للإنسان بسمعته.

سكت قليلاً.. وبعد برهة من الزمن قال بصوت هادئ وبنبرة لم تخلو من الحسم:

– تتطلب الحكمة بأن نكون صادقين على الدوام لكن ليس أكثر من اللزوم.. آستيا تنقصه الحكمة.. والحكمة لا علاقة لها بطول العمر فطول العمر لا يغير ثمار الحنظل.. فكلما تقدم العمر بالشخص السيئ كلما زاد سوءً.

انفعلت واكفهر وجهها فهتفت:

– ما هذا يا باتوس..أتعني بأن لا فائدة ترجى منه.

رمقها على الفور بنظرة تفيض غضباً وعلى الفور ابتلعت ريقها وحبست لسانه في حنق.

وبعد لحظات أتت كلماتها بنبرة مشفقة:

– أعدك بأنه سيكون أكثر رصانة وحكمة ورشداً في المستقبل.

لوح بيده المثقلة بالخواتم النفيسة فاضحاً أمر يأسه منه وقال:

– الإنسان السيئ دائماً على استعداد بأن يكون إنسان حسن.. أجل.. هو دائماً على استعداد فقط.. دعينا من هذا الطائش.. لعلها رغبة الآلهة – ثم أضاف بنبرة أهدأ وعيناه متعلقتان بالسقف – سيحميه الإلـه أبوللو وسيرغمه عـلى اتخاذ الصواب يوماً ما.

أمنت على كلامه في سكينة وهي مغمضة العينين. ثم فتحتهما فجأة واستطردت:

- سأطلب لك العشاء فأنت لم تأكل شيئاً منذ الصباح.

امتلأ قلبه بالارتياح وقال:

- حسناً.. مع أنني قد شبعت.

خرجت فيرا لتطلب له العشاء، فيما تنهد باتوس بعمق وخاطب نفسه مذعوراً " تصبح فكرة الموت فظيعة حين يكون لك ابناً عــاقاً.. لأنك لا تعد تدري ما الذي سيفعله في غيابك. " وأغمض عينيه ينشد السكينة لاستدراج النوم الذي بدأ يتحاشاه، فالنوم لايحب زيارة العجائز لا سيما الذين أغدقت عليهم الحياة بالأفراح والأحلام المحققة، ولكل شيء ضريبة، فإن كنا ندفع ونحن مرغمين ضريبة عن حزننا، فكيف لا ندفعها وقد قبضنا السعادة والأحلام ردحاً من الزمن.

لم يمر وقت طويل حتى دخلت عليه زوجته يتبعها الخدم وهم يحملون صحون العشاء، وقفت أمامه مندهشة حينما وجدته نائماً، على خلاف العادة، يغط في نوم عميق،

تبسمت وقالت في نفسها:

" يبدو أنه قد شبع بالفعل ".

همست للخدم برفع الصحون، وأغلقت الباب بحذر وعادت إليه تتأمله.

جلست والتحفت الغطاء، واضطجعت دون أن تزيح نظرها عنه، وبينما هي كذلك، باغتها النوم وراحت تبحث عنه في أحلامها، لعلها تصادفه بذلك الانطلاق، و لعلها تلتقيه بحيوية الحب في الشباب، فقد كان في جعبتها الكثير له دون غيره.

أما في الخارج كانت السماء صافية جداً، والنجوم في أوج نشاطها وقد رحلت السحب وانزلقت بهدوء إلى مكان غير قوريني لتنزل فيه غيثها.. وانقضت تلك الليلة وهي تنصت لصرار الليل الخريفي.

***

فتح باتوس عيناه مع أول جولة لأشعة الشمس، بعد أن قضى تلك الليلة وهو يسعل على نحو موصول. أجال النظر في الغرفة وعندما لم ير فيرا ابتسم كعادته في كل صباح، فقد اعتادت فيرا على الاستيقاظ باكراً ولم يحدث أن استيقظ قبلها.

أخذ أنفاسه، وعادت سريرته للسكون، وراح في جولة تفقدية، جاب فيها جميع أنحاء ذهنه متفحصاً أحلامه.. ما حققه منها، وما لم يحققه.. ما كان سعيداً بتحقيقه وما كان وراء تعاسته بتحقيقه.. ما يتمنى تحقيقه..ما يتمنى أنه لا يتحقق ابداً.. ولم يقف إلى هذا الحد، بل شرع في إنشاء أساسات لمشاريع أحلام قادمة..!!

عاد إلى الغرفة ونادا، يحدوه نشاط الصباح، الخادمة دورا. كانت دورا وصيفة فيرا والقائمة على خدمتهما، وهي زوجة آركاد، القائم على خدمة باتوس. كانت بدينة بعض الشيء، شعرها متجعد وتميل بشرتها إلى السمرة، ودودة يحبها الجميع، ويكنون لها الاحترام والتقدير.

وما لبث حتى كانت أمامه، وحينما رد عليها تحيتها طلب منها أن تجلب له الفطور، والماء لكي يغتسل. أحنت رأسها وسرعان ما خرجت، وسرعان ما دخلت و برفقتها الخدم يحملون الماء والفطور.

اغتسل بالماء الدافئ فعاد إليه نشاطه وهمّ إلى الفطور بنهم وبعد أن أحس بالشبع قام وبدل ملابسه وخرج من غرفته متجهاً نحو بهو العرش يذرع الممر بخطى بطيئة ويتلفت بإمعان في الغرف والممرات بحثاً عن حفيده باتوس.

دخل بهو العرش وجلس على كرسيه متوجاً بتاج قوريني ودب الهدوء في الأرجاء فخلا بنفسه وأخذ يتأمل الخطوط الشفافة المتشكلة من أشعة الشمس الواجة من النوافذ.

في تلك الأثناء دخل صديق عمره يتعكز، أنهكته الأيام، وعاثت به الأحداث، غير أن شجاعته الفريدة، وصداقته الأصيلة، كانتا تقاومان بعكاز صنع من الخشب، ليمهد له الوصول إلى صديق القلب باتوس، جلس على الكرسي المحاذي له، كان باتوس شارداً بذهنه في دهاليز لطالما كانت تؤرقة في شبابه وها قد أجبرته الشيخوخة على دخولها رغماً عنه لا ضوء لأمل.. لا ثقة.. لا همة.. يسحبه الفضول الخفي لكشف آخر خبايا عقله، في آخر أيام حياته.

كان أناتوليوس مستشاره الأول، وصديقه الأول، ورفيق دربه الوحيد، منذ نعومة أظافرهما لم يحدث يوماً أن افترقا أكثر صديقين تشاجرا وأكثر صديقين تحابا، كان كل شجار بينهما ينتهي بإصابه بليغة لأحدهما، ولعل أقوى الإصابات إصابة عين أناتوليوس التي فقأها باتوس حين ضربه بعصى انكسرت على وجهه.

كانا عنيدين، وشجاعين، ولا يحسنان العيش من غير أن يكونا مع بعض، كان باتوس يفوقه ذكاءاً، وحنكة، وظهوراً، وفصاحة، وكان أناتوليوس يفوقه وسامة، ورهبة، ومرح. كان ضخم الجثة، صوته أجش، يتميز بصحة وافرة، كل الأمور كان يقابلها بسخرية حتى القاسية منها ولم يكن يعرف الشبع فقد كان نهماً في الأكل والشرب والضحك والحركة.

ارتاح آناتوليوس في مقعده والتفت إلى باتوس وبابتسامة سابرة لاغير، كانت غارقة في الحزن، ومليئة بالمعاني التي لم تجد لنفسها كلمات من فرط ضخامتها، فأبت إلا أن تعلن عن نفسها بانتشارها على تجاعيد وجهه وعينه المتلألأة كبحر صيفي وادع.

أدار باتوس وجهه نحو أناتوليوس، وبعد صمت عميق، كانا عاجزين فيه عن الكلام قال باتوس معاتباً:

– هناك دائماً وقت كاف للإطمئنان على الأحبة فالوقت مجرد ذريعة لإخفاء الإهتمام الكافي.. لذا لا تقل لي بأنه لم يكن لديك وقت للإطمئنان على رفيقك.

بذات الابتسامة رد أناتوليوس:

– حتى الإهتمام يشيخ مثلما نشيخ. ومط شفتيه والأسى يحتوي عينه الرمادية وراح بناظره إلى النوافذ المطلة على حديقة القصر وأضاف قائلاً:

– القديم دوماً أجمل حتى في الحديث.. فالإهتمام بالماضي يزداد شباباً كلما شخنا.... أتذكر أعمال الشغب التي قمنا بها في جزيرة ثيرا.. أتذكر توترنا وانفعالنا في ذاك الصباح الربيعي ونحن نغالب صدورنا المقبوضة ونتجهز للإبحار نحو قورينى.. أتذكر المائتي بطل الذين أتو معنا على متن سفينتين. ولوح بيده واسترسل: وتأسيس المدينة.. أتذكر رقصتنا تلك يوم زفافنا.. والحروب مع القبائل المجاورة.. ورحلات الصيد.. والأشعار في الأمسيات.

اطلق باتوس صيحة مكبوته وقال بحزن بالغ:

– ثمة أشياء كثيرة قد أمست زائدة عن حاجتنا منها أغلب أحلامنا التي حققناها.. لقد أصبح كل شيء اليوم أشبه ما يكون بأكل فاكهة في غير موسمها.

– أجل.

وبعد هنيهة تبسم أناتوليوس وقال بمكر:

– أتذكر يوم كنت بعينين.

ضحك باتوس ضحكة خافتة:

– كل مـا قلته قـد يحتاج لمناسبة كـي يستيقظ في نفسي.. أمـا عينك فلم أنسى يوم فقئت. وضحك ضحكة واهنة قـاطعها سعال شديد، وبعد أن استعاد أنفاسه، استرسل:

– انهض واجلب لي غصناً أو ابرة وافقأ عيني كي ترتاح من هذا الهاجس.. وأرتاح بدوري من الشعور بالذنب.

– لقد فات الأوان على ذلك. قال ذلك وهو يلوّح بيده

– حقاً.. من هي التي ستنظر إليك.

– إن كنت تذكر.. لقد قلت لك ذات يوم بأن أعيننا خلقت كي نرى بواحده ما أمامنا ونتذكر بالأخرى ما أصبح وراءنا.

هز باتوس رأسها وقال:

– لعلي فقأت العين التي تتذكر بها.

– أجل.. ولهذا أنا لا أتذكر شيئاً من الماضي.

تنهد باتوس بلطف خشية السعال وبنبرات الغبطة همس:

– لو كنت متيقن من مكان العين التي تتذكر فلن أتردد في وخزها.

ضحك اناتوليوس وقال:

– لا عليك.. دعني أجرب.. إن فقأت العين التي تتذكر بها عندها يكون قـد حالفك الحظ.. وإن فقأت العين التي تـرى بها فهذا من حسن حظي أنا.

ضحك باتوس وقال:

– إن فقأت عيني التي أرى بها فأجهز على الأخرى فوراً أم أنك تريد من ذاكرتي أن تقتلني.

– أعرف أناساً كثيرين قد قتلتهم ذاكرتهم.. كذلك قال اناتوليوس بسخرية.

هز باتوس رأسه وقال متصنعاً الخوف:

– أخاف أن تتسبب ذاكرتي بموتي.

فسأل اناتوليوس سؤالاً كان يريد من خلاله إثارة غضب باتوس كما اعتاد أن يفعل دائماً:

– أكتبت لها؟

في تلك الأثناء دخل عليهما صديقهما يليناوس، ألتفتا معاً نحوه وأجاب باتوس:

– وما الذي يخصك في الأمر؟

– مجرد سؤال فقط.

أدّعى باتوس عدم اهتمامه بالسؤال، وحيا يليناوس وأخذ يسأله بإسهاب عن أحواله وأهله وصحته وكل ذلك لكي يتجاهل أناتوليوس.

والحق إن ما قام به يليناوس في قوريني لم تكن لتقوم من دونه، كان خبيراً عبقرياً محباً للعمل بشكل لا يوصف وقد اعتمد عليه باتوس في كل شيء حتى إن ثقته في المستقبل في تأسيس مملكته كان وراءها يليناوس، كان دقيقاً مثابراً ومبدعاً، فعندما شد باتوس الرحال إلى قوريني أتى ومعه مائتي خبير وكلهم متجمعون لم يكونوا مثله عبقريته كانت الأساس لبناء قوريني، كان أشقر الشعر، إغريقي الملامح والأصل، يحب الصمت أو بعبارة أخرى كان يحب التفكير، كان مهووساً بشيء اسمه قوريني، وكان يقول لباتوس " بأنه يحس بتشكل قوريني ونموها بين يديه " ولطالما ردد باتوس ذلك في ذاكرته، لقد أحبها حباً جنونياً، حتى أنه سمى إحدى بناته بقوريني. لقد كان وراء شق القنوات وتصريف المياه، وكان أيضاً ركيزة من ركائز نهضة الزراعة وتطويرها، وتدجين النحل، لم يكن ينام إلا سويعات قليلة وكان مواضباً على زيارة باتوس وكان باتوس يحبه، ويحترمه.

فطن أناتوليوس لتجاهل باتوس المتعمد له فصاح مخاطباً يليناوس الذي جلس لتوه قبالته:

- إن طلبت أن أعيش أكثر يا يليناوس فسأطلب ذلك من أجل أمرٍ واحد.. أن يقول لي سعادة الملك بأنه قد يئس.

ضحك يليناوس وهو يرمق باتوس وقال بصوته الخافت:

- لامجال لليأس بعد عمر من التفاؤل.. كما أنه لامجال للقاء بعد عمر من الفراق.. هو يعرف هذا جيداً.. لكن لعلها متعة ينتشي بها في

مغازلة الماضي والسعادة الغابرة.. ولهذا أراهن بأنه لن ييأس.. وسيكتب لها ككل مرة حين تهب رياح الجنوب.

صاح اناتوليوس قائلاً بازدراء:

- لا شيء يجعلنا أغبياء مثل الحب.. ملك بجلالة قدرة وحكمته وجبروته يكتب الرسائل ليغازل بها الأسماك.

فقال باتوس مخاطباً أناتوليوس وقد طفق غضبه:

- لازلت كما أنت تساقطت أسنانك هرباً منك.. وابيضّ شعرك قهراً من أفعالك.. وتجعّد كامل جسدك حرجاً من تصرفاتك الطائشة.. لم تتغير ولن تتغير.

امتلأ البهو بأصوات ضحكاتهم، وقضوا ساعات الضحى بمرح الشباب الغابر وأخذوا يسترجعون المواقف المضحكة والتي لطالما تحفظوا عنها حتى قامت الشمس في وسط السماء فنهض اناتوليوس ويليناوس وأخذا الإذن بالإنصراف كلٌ لشأنه وفور خروجهما عادت نوبات السعال إلى باتوس من جديد بعد أن هيجه الضحك الذي كان نتيجة لتحريك مواقف لطالما ظلت راكدة في ذاكرتهم ولم تبهت حلاوتها رغم طول الزمن.

(٢)

سرى التحسن شيئاً فشيئاً في صحة باتوس واستعاد قوامه العافية وأينعت على إثر ذلك رغبته في الحياة وانبلجت معنوياته فأسهمت في تحسين طبيعة أفكاره.

كان يعرف بأنه لا يعدو كونه عجوز قد تمكن منه الزمن ولتوه أمسى يعرف بأن الأهم هو أنه لا يزال حياً، فمهما كان عدد السنين التي جابها المرء الحاضر واحد، والغد واحد، والموت لا يعترف بالأعمـار، كما أن الأقدار لا تعترف دائماً بالتجارب.

كان واقفاً عند شرفة غرفته المطلة غرباً على أسقف البيوت وساحة السوق والمعبد يتأمل أسراب المواطنين المتلاطمة في الشوراع والأزقة وتتناهى إلى مسامعه مع النسمات بين الحين والآخر تمتمتهم وصيحاهم، وكعادته يتجه ببصره خلف سور المدينة ويظل يراقب عن كثب، على أحد السفوح التي تقابله وسط الأحراش رجل يرعى غنمه في هدوء ودعة وقد مر على هذا الحال عشرون عاماً كانت تدفع فضوله لسبر هذا الشخص الذي لم يتغيب عن ذلك المرعى قط.

وبينما هو كذلك دخل ابنه اركسيلاوس يسير بلطف، ولم ينتبه له باديء الأمر حتى وقف بجانبه، كان اركسيلاوس في ذلك الوقت ولي العهد والقائم على تسيير شؤونها، وقد تعمد باتوس ذلك منذ زمن، كي يرث الملك و يرث سنته، ولكي يرث الولاء.

كان فتياً ذو طلة مهيبة، يشبه أباه كثيراً في صغره، غير أنه كان فارع القامة وأكثر منه أناقة وجاذبية.

تفاجأ باتوس، غير أنه ادعى عدم اكتراثه. فقال اركسيلاوس " كيف هو حال صحتك اليوم..؟ " وفي تجهم أجابه باتوس:

- وماذا ترى..؟

- إنك بحال جيدة جداً..!

وبعد صمت لحظات كان يتأمل فيه الباعة في السوق سأل باتوس:

- كيف هو حال شعبك؟

- إنه يتمنى لك طول العمر وعميق السعادة.

أومأ باتوس برأسه مبدياً تفهمه وقال بعد أن جاس في عقله برهة من الزمن:

- ثمة يابني أشياء عليك أن تفهمها جيداً وتعمل بها.. أنت الملك الآن ويجب أن تثبت لنفسك قبل الآخرين بأنك ملك - ألتفت إليه وتابع قائلاً - يابني.. سعادة شعبك هي سعادتك.. وشقاء مواطن واحد فيه يعني شقاؤك.. ابذل قصارى جهدك في توفير الرخاء لتنال الاحترام.

وسكت الملك ولم يعقب الابن على ابيه لأنه كان على دراية بأنه ما يزال يسترسل وما هي إلا لحظات حتى استجمع الملك أفكاره قائلاً:

– فالإنسان الذي يتكلم من غير فعل كالإبرة التي تخيط من غير سلك.

كان المكان ساكناً تعبث النسمات الوديعة بالستائر الشفافه المتشبعة بضوء الشمس والتي كانت منعكسة على عيني اركسيلاوس كمرآة فيما كان الملك يقول:

– غالباً ما يصدر التصرف السليم من الشخص العاقل.. ويصدر التصرف الأسلم من شخص متهور حالفه الحظ.. اركن إلى التصرف السليم دائماً فالتهور لا يصدر إلا من شخص ليس لديه ما يخسره – ومالت نبرته إلى الحدة قائلاً – أي عكسك تماماً.

ثم راح بناظريه نحو الشرفة واسترسل:

– إن سيد العقلاء هو أكثرهم عقلاً.. وسيد الحمقى هو أكثرهم حمقاً. فقاطعه اركسيلاوس بضحكة خاطفة. وتبسم أبوه ثم أضاف بجدية:

– حين كنت في سنك خسرت احترام الناس أعواماً... فالناس ستهاجمك إذا كنت المخطئ الوحيد وسيكون هجومها أشرس إذا كنت المصيب الوحيد.. ومرت الأيام.. وتواترت الأحداث.. دون أن أفكر فـــي الرجوع عن هدفي.. ولم يثبطن شيء عن إقناع الناس بجدوى فكرة العودة إلى موطننا. ورفع حاجباه وأضاف بنبرة محفزة:

– فأكثر الناس إقناعاً لنا بأفكاره هو من يشعرك بأسلوبه أنه لا يقصد واقعه فحسب بل واقعك أنت أيضاً.. وحين اقتنعوا بفكرتي.. وحققت هدفي..

انظر ماذا حدث – وفرد كلتا يديه – كسبت الاحترام مضاعفاً ودفعة واحدة.. كذلك السخرية كنت أراها في أعماق أعين الناظرين.. وأسمعها في قيعان أسرارهم.. ودون أن يدروا.. كانوا بذلك يدفعونني ويملأونني عزماً على إتمام ما بدأت.. فعندما تقابل سخرية الآخرين بالتصميم تصبح وقوداً جباراً لإشعال الهمة وشحذ الصلابة لنمو إرادة يستحيل ثنيها.

عاد إلى الأريكة كي يجلس وبينما هو يسير إليها قال:

– والمشاكل بين الناس في الغالب لا تبدأ بسبب إنما هي بحاجة إلى سبب لكي تظهر للعيان فالسبب لا يعدو كونه وسيلة مواتيه للتعبير عن ما يذمره بعضهم لبعض.

كان بادياً على اركسيلاوس الاستمتاع بتلك النصائح والتي بدا وكأنها قد بيتت له دون غيره والحق أنها كانت وصايا الراحل للمقيم وتنبيهات الواصل للاحق، ولطالما كان يروق للملك أن يسامره لذلك لم يجد الابن غضاضة في سماعه.

واسترسل باتوس، فيما كان يجلس بوهن:

– الأمم والحضارات تقترب من الدمار كلما ابتعدت المسافة بين الأغنياء والفقراء.. فقاطعه اركسيلاوس قائلاً:

– لا تتوجس خطراً يا أبي فالمسافة بين الفقراء والأغنياء في قورينى لا تتعدى المسافة التي بيني وبينك.

ضحك باتوس والتفت اليه:

– هذه المسافة بوسعها أن تودي بقوريني إلى الدمار في لحظة.. أتعرف الدافع الذي وراء هذا الدمار..؟

– كلا..!

– إنه الظلم.. والعبثية واللامبالاة.. إذا صدرت منك فإنها ستصبح نظاماً لمملكتك ويتخذه الشعب أسلوباً لحياتهم يستحيل بعد ذلك اجتثاثها.

عاد الصمت للهيمنة على المكان، كان باتوس هائماً بنظره فيما وراء النافذة، وراء لحظات مرت كمرور سرب من الحمام اجتاز أجواء قوريني، نسي لحظاته الحاضرة واستعاض عن الغد بالذكرى وعن اليوم بشبيهه فيما مضى، وعن ذات الموقف مع أبيه قبل خمسين عاماً، فخطر عليه خاطر من وصايا أبيه ذات يوم:

– يا بني فخر الأسد بأبيه كفخر الفأر بأبيه.. عندما ربيتك لم أربك كابن للملك بل ربيتك كإنسان.. فالأسد لا يعلّم أبناءه لكي يصبحوا ملوك للغابة.. إنما يعلمهم لكي يصبحوا أسوداً – سكت وهمس في شجون:

لن أطيل عليك.. وأنت لاتحتاج إلى هذه النصائح.. فلربما كنت أقدر مني على تسيير المدينة.. لأنك من هذا الزمن وتعرف أكثر مني ما الذي يتطلع إليه شعبك هذه الأيام.. ولكن ما أريد أن أنبهك إليه..إياك أن تتصرف بعاطفة.. فلطالما تصرفت بعاطفتي حيال ما قابلني من صروف الحياة ولطالما تفاجأت

بعظم سخافتي حين فكرت في الأمر بعقلانية.. فالموقف الذي تتخذه من دافع التعاطف سرعان ما سيذوب كذوبان الجليد وحينما يكون دافعه العقل سيرسخ كرسوخ الجبال.

تبسم أركسيلاوس وقال بنبرة حميمه:

- أقسم بأننا من أسعد الشعوب.. ملك متوج بغار الحكمة.

ضحك باتوس ضحكة اليائس المسلوب وفاجأ ابنه قائلاً:

- ليست حكمة.. إن المرء يزداد ذكاؤه كلما قلّت ثقته بقوته. ثم تنهد بصوت عال ورفع ناظريه إلى ابنه وقال:

- جهز لي العربة أريد الخروج.

- إلى اين تنوي الخروج..؟

بابتسامة عريضة قطب فيها جبينه:

- وما دخلك أنت.!

ضحك اركسيلاوس وقال:

- قلت قبل قليل بأن لا أتصرف بعاطفتي.. وخروجك كما تعلم ليس بالأمر السهل.

- أغرب عن وجهي.. وأسرع بتجهيز العربة. قال هذا بازدراء وهو باسم المحيا وعيناه ترمقان ابنه باعتزاز وفخر.

أحنى اركسيلاوس رأسه وقال بنبرة بهيجة:

– أمرك مولاي.. وانطلق وهو في غاية السرور.

شرع باتوس في تجهيز نفسه للخروج، ارتدى أبهى ملابسه، وتعطره بأزكى عطوره، ينشد لقاء ذاك الراعي الذي استحوذ على عقله بتلك الوتيرة المتناسقة في تمضية حياته، والتي مرّ عليها قرابة العشرين عاماً.

إن ما كان يشد باتوس هو صبره وديمومته على ذات النحو، فهو لم يكن يحتمل البقاء في مكان واحد أكثر من دقائق معدوده وسرعان ما يصيبه الضجر، و كان يريد أن يفهم كيف يتحايل هذا الراعي البسيط على الملل الذي ينتاب المرء من تكراره للشيء.

ومالبث حتى دخل عليه خادمه آركاد، وقف أمامه وانحنى له بإجلال، كان فارع الطول يتميز بساقين طويلتين، شعره متجعداً ناصع البياض، وكان يقارب باتوس في العمر، عيناه ضئيلتان تحوطهما التجاعيد يحملن انطباع الخجل لكل من يراه.

أبلغه بجاهزية عربته والتي كانت تحفة فنية في منتهى الإتقان كانت مزركشة بنقوش معقدة وبألوان زاهية أضفت عليها البهاء والروعة، وكانت تجرها أربعة من أنفس خيول قوريني أصالة.

وخرجا معاً عبر رواق الباحة فضحك حين رأى أحفاده منشغلون في مطاردة طائر طاؤوس كان يجري أمامهم بفزع ويضرب جناحيه فالهواء محاولاً

الطيران. ناد حفيده الصغير باتوس ابن اركسيلاوس بلهفة فلم يعره الثاني إي اهتمام وتابع مطاردته.

وصل إلى بوابة قصره وخرج ليرى الحياة من جديد، عقود من العمر، وطفرات من العيش الجميل، وحزن على فراق، لم يعد يفصل بينه وبينه سوى أيام.

وقف هناك وقد تسمر الحرس في أماكنهم دون حراك، وفي حبور استنشق عليل مدينته العزيزة، وتجلت البهجة على محياه حتى ظن بأنه لايزال شاباً، لايزال سعيداً، لايزال بمقدوره أن يحلم من جديد.

أوقف آركاد العربة عند نهاية الدرج، وراح باتوس بنظره مشتاقاً إلى الخيول الأربعة التي كانت تربطه بها علاقة وطيدة، ونزل الدرج، كان في كل درجة يقطعها يصعد بذاكرته إلى الماضي، إلى ماوراء الحاضر، ووصل إلى خيله الأصيلة، داعبها وسلّم عليها كما لو أنه يسلم على أشخاص يحبهم لم يرهم منذ زمن، وبعد ذلك ساعده آركاد في الصعود على متن العربة وانطلق به ببطء إلى ذلك المرعى.

أخذ في طريقه إلى هناك يستفيق من كآبته شيئاً فشيئاً، حين مرّ على اللحظات الأولى لميلاد قوريني قبل أربعين عاماً، وشاهد بعيني ذاكرته الطرق وهي تُشق وتُفتح من قطرات العرق، ومرّ على كل جدار بني بأيدي تعلمت من أصحابها كيف يحافظون على سعادة وطن، وتأمل النقوش المتقنة من خيال بديع لفنانين غازلوا قوريني فتعلقت بهم، وقابل الرسوم التي اختار رسّاموه

الألوان بعناية كي يطربوها، وجاس الظلال الباردة للأشجار التي أراد من زرعها زراعتها لاغير، مرّعلى المسرح والمعابد والقنوات والسواقي والأزهار و روائحها، وكانوا كل أهالي قوريني يقابلونه وهم يلوحون له بأذرع عارية بمحبة صادقة وينحنون له اكباراً.

كان سابحاً بخيله على الأرض وبخيالاته في نفسه، فكر في الجو الملائم الذي تنفجر فيه السعادة وتخرج من طور سكونها، وتساءل كيف أن محبة الناس تسري في القلب فتنير الكون، وفكّر أيضاً كيف أن الملك وحده لا يعدو كونه سجن قضبانه من ذهب، فكل سعيد هو الملك ولكن ليس كل ملك سعيد.

في تلك اللحظات الدافئة عقد العزم على ملازمة من أحبوه بالحب كي تمر حياته سعيدة، وهادئة، وأن يغتنم كل لحظة فيها كما يجب. فهناك أوقات سعيدة ستفوتنا في المستقبل فنحن نتمنى دائماً وبحسرة أن يعود بنا الزمان، لأننا نرى الماضي أكثر وضوحاً من غيره.

لقد عقد العزم أيضاً بأن لا يؤجل شيئاً مهما كان حقيراً، لأن التأجيل للمستقبل هو أيضاً فوات للأوان، فالأوان في الظروف وليس بالضرورة في الزمن. وتنفس الصعداء حين أدرك بإحساسه حين تملكه الرضا بكل مـا رأه في طريقه أن قيمة الحياة بما نحبه فيها وبما يحبنا فيها.

***

شد أركاد زمام الأحصنة بقبضته الصلبة فوقفت بهما العربة على طرف السفح، وحينما انتبه لهما الراعي نزل على عجل وبارتباك ظاهر. كان اسمه

كارنئاد، في نهاية العقد السادس، كان نحيفاً رقيق الأطراف، تميل بشرته إلى السمرة، ملامحه متناسقة ومهذبة كأخلاقه، كان حاذقاً حصيفاً يعرف متى يتكلم ومتى يصمت. عيناه غائرتان تثيران اهتمام الرائي، وشعره بني طويل متموج وقليل الشيب كان يلفه بحزام رفيع من جلد الغزال الناعم. لم يكن من أثرياء قورينى، ولم يكن من بسطائها، كان على قدر كبير من الحكمة، ويقيم ببيتٍ صغير في جنوب المدينة، زوجته قد توفيت منذ زمن، وله منها أربع أولاد وبنت، وكان يملك حقلاً صغيراً يلف بيته ويقوم أولاده على فلاحته.

كان يوماً مشمساً ساكناً لا تتحرك فيه الأزهار اليابسة إلا بفعل الحشرات ويكاد يسمع صوت رفرفة الفراشات من سكونه، كانت قورينى في ذلك اليوم تبدو كجنة وارفة غناءة، يلفها الهدوء، تاركاً مجالاً بسيطاً لتغريد العصافير المتقطع الباعث إلى الاسترخاء، وكان زيز الحصاد متمسكاً بحياته القصيرة بنداء متصل، لا نسمعه بالرغم من أنه لا يتوقف عن النداء، فأسماعنا عندما تعتاد صوت ما لا تعير له اهتمام لا سيما إن كان متصلاً وعلى غير فائدة.

كان كل شيء في الأرجاء منهكاً، وذو رائحة كئيبة، ولون أصفر بائس. جلس باتوس ينتظر الراعي تحت شجرة خروب خضراء عريقة يستفيء من ظلها الذي استغرقت في حياكته زهاء الثمانين عاماً، ناعماً برائحة الزعتر المتوهجة من لفح أشعة الشمس. ووصل الراعي برفقة آركاد ويتبعهما قطيعه المدلل، كانت أصوافه بيضاء ساطعة من انعكاس أشعة الشمس عليها، ووسط ذلك القطيع كان هناك حمل صغير لم يتعدى عمره الشهر يحاول الطيران بقفزات عالية أمام ناظري أمه، فيما كان بين القطيع كبش أبلق بارز، مهاب، ذو قرنين عظيمين،

ينظر منذ زمن ودون حراك إلى الراعي الذي جلس باستحياء على بعد خطوات من الملك بعد تقديمه لواجب الترحاب.

ومرت لحظات ساد فيها صمت خانق.

فقال باتوس مخاطباً الراعي في محاولة جادة لكسر الخجل الذي كان بادياً عليه:

– انظر إلى الكبش.. يبدو أنه يريدك في أمر ما.

ابتسم الراعي وقال بصوت مهتز:

– لعله يامولاي يشعر بشيء.. لكنه لا يستطيع الإفصاح عنه، فلا توجد وسيلة أخرى لنعبر بها عما يجيش في صدورنا و يختلج أفئدتنا غير الكلام.

التفت إليه باتوس باهتمام فيما استطرد الراعي:

– بالرغم من أن الأفصاح عن كل ما ينتابنا هو محض غباء.

تساءل باتوس بامتعاض:

– ولما..؟

فأجابه الراعي حين استعاد رصانته:

– إن ذكاء المرء ليس فيما يقوله بل فيما لا يقوله.. وما ينتابنا قد تكون مجرد رغبات عابرة أغرانى بها الواقع سرعان ما تحل محلها رغبات معاكسه فور تغير

الواقع وبذلك نخسر مصداقيتنا أمام الآخرين. وراح بنظره إلى المدينة الرابضة على المنبسط. وتبعه باتوس ورمح بنظره إلى هناك، وظل شارداً فيها يقابل حلماً تحقق على أرض الواقع، ثم قال بنبرة ملؤها الفخر:

- في ظنك.. ألا ترى معي أن قوريني هي أجمل مدينة في الوجود؟

تبسم كارنئاد قائلا:

- من حيث المبدأ الكل يرى بأن مدينته هي الأجمل على الإطلاق.. ومن حيث الجمال قوريني لاينقصها شيء حتى لانقول عنها أنها الأجمل والأكثر جاذبية وسحراً.. فضلاً عن أن الإله أبوللو قد أختصها بمحبة ورعاية فاقت محبة كل مدن الأرض.

أعجب باتوس بجوابه، مما دعاه إلى مصارحته قائلاً:

- أتعلم.. أنا أعرفك منذ عشرين عاماً..!

فزع الراعي، وأخذ الشك يتقاذف عليه من كل الإتجاهات، فقال مستفهماً:

- أتعرفني أنا..!!

- أجل.. لطالما كنت مثاراً لاهتمامي. ثم أوصل قائلاً:

- أترى ذلك القصر القابع وراء السور مباشرة. قال ذلك وهو يشير بيده نحو قصره.

أومأ الراعي بدهشة قائلاً:

- أجل. فتابع باتوس يقول:

- أترى تلك النافذة الأولى من الشمال..

- بالتأكيد..!!

- تلك غرفتي.. كنت أراقبك من هناك.. ولكي أكون صادقاً.. كنت أراقب صبرك.. أو انتظر نفاذ صبرك. فقاطعه قائلاً:

- أو نفاذ عمري.

ضحكا معاً، ثم عاد كارنئاد مستفهماً لعدم ارتياحه للأمر:

- ما الذي دعى مولاي لإفراغ وقته الثمين في أمر كهذا..؟

راح باتوس يتأمل نافذة غرفته وقال بنبرة جدية:

- لا أفضل أن ألتقي بنفسي في مكان كنت قد ألتقيت فيه بها قبل ذلك.

عدل الراعي كارنئاد جلسته وقال بنبرة عميقة:

- ليس الأمر على علاقة بتفضيلنا.. أو نفورنا من الأماكن.. أو تكرار زياراتنا لها.

التفت إليه باتوس دون أن ينبس بكلمة.. فيما واصل الراعي:

– الأمر يتوقف على استطاعتنا في أن نرى المكان وكأننا نراه لأول مرة.. ونلتقي فيه بأنفسنا وكأننا نلتقي بها فيه لأول مرة أيضاً.. لقد ناهزت الخمسة وعشرون عاماً وأنا على هذه الحال.. بالنسبة لي كل يوم كـان على غير عادة اليوم الذي سبقه.. وهكذا – وسكت قليلاً، ولما رأى الملك مصغياً باهتمام تابع بثقة أكبر – إن الحياة في داخلنا.. في قلوبنا نحن وليست فيما حولنا.. نحن من نضع الألوان على الأزهار.. ونحن من نضيف الروائح في الهواء.. وأيضا نحن من ننزع الألوان ونشتث الروائح من الأزهار.. فجمال الحياة مهمتنا نحن وليست مهمة الحياة.

تطلع باتوس إلى يساره إلى السهل الممتد أسفل منهم، وقال:

– إن الجمال هو كل ما لا يروق لنا بعد وقت من رؤيته.. والقبح هو كل ما لا يروق لنا فور رؤيته.

سكت الراعي برهة من الزمن لكنه سرعان ما لملم شجاعته وعقب قائلاً:

– نحن لا نرى الجمال.. نحن نرى به.

وضاع الكلام حين فتحت كلمات الراعي براحاً أوسع للخيال والتفكير في النفس. وطال الصمت بينهما فقام باتوس متثاقلاً وقال:

– طالما أنها حياة واحدة حري بنا أن نجعل كل يوم فيها مختلف عن الآخر – ورمقه بنظرة حادة – وإلا فما قيمة العمر الطويل إذا كانت أيامه متشابهة.

اختار كارنئاد السكوت بدلاً من الإجابة، ولم يعقب مرغماً مخافة أن يتعدى حدودة. ونهض بدوره وقال هامساً:

– إنني أكثر الناس حظاً بزيارتك يا مولاي.

ابتسم الملك وقال:

– عندما كنت أراقبك من هناك كنت أراقب إنساناً غريباً يكبرني بصبره.. واليوم بعد لقائي بك لا زلت تكبرني بصبرك غير إنك لم تعد ذاك الإنسان الغريب.. وبالفعل أنا أكثر الناس حظاً.

أحنى كارنئاد رأسه وقال بحميمية:

– إننا جميعاً محظوظين.. ربما ليس بالقدر الذي نريده لكن بالقدر الذي يجعلنا سعداء.. أي بالقدر الذي يجعلنا محظوظين.

رفع الملك حاجبيه قائلاً:

– هو ذا.. فقد يحالفنا الحظ للظفر بما لا نملك.. لكننا على الدوام حلفاء له بما نملك.. إلى اللقاء.

– رافقتك السلامة يا مولاي.. فيكفي المرء حظاً أن يتشرف بمجالسة ملك مثلك.

وعاد باتوس أدراجه، هائماً في نفسه، كان ينظر إليها بامتعاض وبين الفينة والأخرى كان ينظر إلى المارة، ووصل إلى قصره يحمل العديد من التساؤلات

الجديدة، وابتسم فجأة، كما لو أنه قد عثر على كنز، فيما كان يخاطب نفسه " حالف الحظ يحالفك.. لاشيء غير ذلك "

***

قضى باتوس ذاك المساء وذهنه يعج بهواجس كثيرة كانت تثور وتخمد، وكان يسامر نفسه بعد اختلاط أمور الحياة عليه، إذ لطالما اعتاد على التغلغل في مضمون كل شيء يمر به حتى يعرف كنهه "هل كلٌ منا يكتب قدره كما يحلو له..!! – قال ذلك كما لو أنه يخاطب عقله من وراء باب، وتابع – أم أننا نقرأه فقط ولا علاقة لنا من بعيد أو قريب بكتابته وأننا لا نقرأ منه سوى ما يحلو لنا..!! هل سبب تعاستنا من سيرنا وراء السعادة..!! هل العمر من أجل أن نحيا به.. أم من أجل أن نموت له..! هل أحلامنا هي من كانت تضيء لنا طريقنا.. أم أنها سبب ظلام الماضي..! هل تستحق الذكرى دوام بقائها معنا طوال حياتنا.. أم نحن مـــن نستحق أن نبقى ذكرى أبـــد الدهر...!هل أحسسنا يوماً بإهتمام الدهر بنا..!"

غالبه الصمت، فلاقى مجالاً للعودة إلى هناك إلى ماضٍ مجيد لطالما اعتزّ به، وراح بنظره إلى الشرفة فلاح من عينيه بريق بفعل أنوار الشموع، وعاد لنفسه مخاطباً " هل القوة هي أن تكسب نفسك.. أم تسحقها..!! أو أن تكسب الآخرين أم تسحقهم..!!" تنهد بعمق بالغ واستطرد " هل سيغرب الحزن ذات يوم عن سمائنا..!! أم أن غروبنا عن الحياة قد بات وشيكاً وأقرب من غروب الحزن..!"

أخذت صور أصدقائه، من عاصروا أمجاده، بالتوافد والإمتثال في مخيلته.. أحدهم كان يصيح لطلب المساعدة والعرق يتصبب من جسمه، وآخر مبتسم وعيناه الخضراوان تتلألأن كحجر كريم، وآخر كان يعمل بصمت يصدر منه صوت شبيه بالأنين أثناء شده للحبل، ورأى آخر كان فاغراً فاه ويزمجر غاضباً والباقي من حوله يضحكون خلسة، وآخر يجري وسرب النحل كغيمة فوقه كان يصفع رأسه بكلتا يديه من لسعاته الحارة، وآخر يفلح الأرض محسراً ذراعيه الصلبين. ابتلع ريقه وابتسم بحميميه وحزن بالغين وهمس " هل سيعود ذات يوم ذاك الحب كي يلقح قلوبنا من جديد ونتنفس الحياة..!! هل تنتمي السعادة إلى هذا الزمن.. أم أنها لاتنتمي لأي زمن بل تنتمي لرجال قد مرّوا ذات يوم وبات من المستحيل أن يعودوا مرة ثانية إلا بمعجزة..!! وهل تتكرر المعجزات ويعود الشباب..!!" مط شفتيه وأردف بوجه عابس " ربما.. هذه الكلمة التي لم تتعد حروفها الأربعة حروف قد يكون بوسعها أن تجعلنا نثق بغد أفضل.. هذا إن وثقنا طبعاً بأن هناك مدبر لهذا الكون غير أنفسنا...!"

أخذ أفق ذاكرته في الاتساع وتجلى حبه المفقود، هزّ رأسه مؤنباً " حبيب ضائع أعالج غيابه بأحلام توقد في الاشتياق فأضيع بسببها.. سئمت من ابتعاد نفسي عني.. من ابتعادي عن الناس.. من عمر من الأحزان غير المبررة.. من لحظات في ذكرى من ماضي تفضل لي بها من مبدأ الشفقة على حالي.. من عدل أشعرني بظلمي.. من ظلمٍ أراد تذكيري.. من نسيان لم يهتم لأمري.. ومن قدر يحب استفزازي.. كل ذلك وأعود.. لأكرر كل ذلك..!! أعود لذكرى حبيب ضائع.. لوكان بجانبي لما فقدت ذاتي بحثاً عن عمر راح.. عن سعادة

مفقودة.. سعادة خرافية لـم تتفضل بها سوى أحـلامي.. جعلتني أثق بالواقع فأصبحت مثاراً لسخريته.."

أن تفقد إنساناً كنت تكن له من الحب مالاتكنه لغيره بسبب أو بآخر، فأنت أمام خسارة فادحـة، لأنك حينها لا تعرف ما الذي خسرته أكثر، هل هو حبيبك..؟ أم نفسك..؟ أم الوقت..؟ كان باتوس يتخبط بحثاً عـن خسارته الكبرى وخيبته القصوى متسائلاً في حيرة من أمره هـل هي نفسي...؟ ولكنه قد حقق ما لم يحققه أحد، بـل حقق مالم يكن بمقدور نفسه أن تحققه لولا عون القدر..!! أم أنه الوقت..؟ ولكنه أيضاً قد استفاد من لحظاته لحظة بلحظة..!! أم أنها حبيبتي..؟ربما كانت هي أكبر خساراته، بالنسبة له دون غيره..! ولكن إذا لم يخسرها هي، هل كان سيؤسس قوريني..!! هل كان سيصبح ملكاً..!! هذا ما يصعب التكهن به، ففي حضور الحب خسارة لأشياء كبرى قد تستحق منا تفضيلها عن الحب. الوطن. هل ثمة امرأة في الوجود توازيه في جبروت هيمنته على قلوبنا..!!

كان يذرع بهو العرش بخطى بطيئة ويداه معقودتان وراء ظهره. وبينما هو كذلك دخل عليه بعد الاستئذان صديقه أناتوليوس، وعلى الفور خرج باتوس من ذلك المزاج ورحب بصديقه أيما ترحيب.

جلسا على الأريكة الفاخرة، التي كانت تتسع لأربعة رجال. وتساءل اناتوليوس فاضحاً غيرته:

- قيل أنك ذهبت اليوم خارج أسوار قوريني..!!

- أويهمك الأمر..؟

تصنع اناتوليوس قائلاً:

- لا يهمني الأمر بقدر ما تهمني أنت.

أطرق الملك نظره في الأرض قائلاً:

- لقد ذهبت إلى صديق جديد.

- ومنذ متى تواعد الأصدقاء خارج أسوار قوريني..!!

فرد عليه باتوس بحنق:

- هذا صديق جديد تعرفت عليه اليوم - ثم أضاف باندهاش - وقد صدمني بنفسي.

لاح الإنشغال في عين اناتوليوس وقال:

- مما..؟

ألتفت الملك إليه قائلاً بجدية:

- قد تصدمك الأيام بشخص من فرط تميزه تتمنى لو أنك تعرفه منذ زمن..!!

رفع اناتوليوس حاجبيه وقال بنبرة ازدراء:

- يبدو أن هذا الصديق الجديد قد أخذ مجراه في داخلك..!

استدار باتوس بجلسته نحوه وهو يقول بنبرة المندهش:

– محياه كان معتاد على الابتسامة دون ابتذال كما نفعل نحن في أغلب الأوقات.. وعيناه تشعّان الإطمئنان والهدوء على نحو موصول..!

تبسم اناتوليوس وقال بمكر:

– ليست الابتسامة حكراً عليكم انتم يا مولاي.. فثمة فقراء قد أغنتهم سعادتهم عن حاجتهم.

– في ظنك ما السبب..؟

رفع أناتوليوس حاجبيه مخمناً:

– على الأرجح هي مكافأة الصبر على فاقتهم.

هز باتوس رأسه قائلاً:

– كلا.. ليس تحديداً هذا السبب.

فانتابه الغضب ونهر باتوس قائلاً:

– ولماذا سألتني إذاً..؟

أردف باتوس دون إعارة اهتمام لردة فعل اناتوليوس:

– ربما لأنهم أحبوا حياتهم بعد أن قنعوا بها ولهذا تراهم أسعد من الملوك.. ولهذا أيضا أجبروا كل من رآهم على أن يحبهم أو أن يتأثر من خلالهم.

واتكأ على الأريكة واسترسل:

– لطالما كنت أراقبه من هذه الشرفة.. كانت تفصل بيننا مسافة طويلة.. إلا أنني كلما غصت في طريقة تمضيته ليومه مع أغنامه أشعر بأن ملكه يضاهي ملكي.

أغمض اناتوليوس عيناه وهو يلوح بأصابع قائلاً:

– حسبك.. لا تبالغ..

– صدقني – ثم استطرد بصوت أهدأ – من يثيرون انتباهنا في العادة هم يفوقونا بشيء أو بآخر.. ولهذا كان الراعي محط إعجابي..

نهض اناتوليوس وهتف:

– غريب هو أمرك يا مولاي.. أناس عاصرتهم لسنوات عده لم تأت على ذكرهم قط.. وأناس لم تلتق بهم سوى لحظات لاتسأم من تذكرك لهم.. يبدو أنك لن تتخلى عن انبهارك المعتاد بالأشياء الصغيره.

– لا يعتمد الأمر على طول الزمن أو قصره.. ولا المبالغة في الاشياء.. إنه جمال الروح وجاذبيتها اللذان قلما نصادفهما في الذين من حولنا.. لا سيما وإن كنت ملك.

قطب اناتوليوس جبينه وقال بنبرة حادة:

– إلى ما ترمي..؟

– لا أقصدك. وأوصل كلامه بضحكة خرجت عن سيطرته حينما رأى عين أناتوليوس تبرق غيظاً ثم أضاف:

– لا تعتبر نفسك من الذين أقصدهم.. وبالمقابل لا تستثني نفسك أيضاً من الذين لا أقصدهم.

– حسناً.. يكفي.. لقد نسيت ما الذي أنا آتٍ لأجله.

– وما الذي أتى بك إذاً؟

– يليناوس.

– ماذا به؟

– إنه يحتضر.

قال ذلك وقد تشبع وجهه حزناً، فنهض باتوس مندهشاً، تتساقط همته تباعاً وتتهاوى من وطأة ما سمع:

– وكيف حدث هذا..؟ يجب أن نذهب إليه الآن.. هيا.

بصوت عالٍ ردّ أناتوليوس:

– لقد كنت عنده.. وقد تركته نائماً..

– وكيف تقول لي بأنه يحتضر..!!

– إن حالته لا تسر.. اجلس.. فليس بمقدور أحد أن يجابه الموت.. ستذهب له في الصباح.

وجلس باتوس يمني نفسه:

- فليحفظك أبوللو يا يليناوس. فيما افتعلت فيه عاصفة من الآلام بذلك الخبر الجلل، ثم قال بصوت عالٍ وكأنه بصوته هذا كان يحاول أن يُسمع الموت مدى أهمية يليناوس في بقائه حياً:

- إنه يليناوس.. آخر من يتكلم وكلامه هو الأول دائماً.. إنه الحكمة..!!

أحنى اناتوليوس رأسه مبدياً أسفه وقال بنبرة غارقة في الحزن:

- لقد أوصاني.. يبدو أنه قد أدرك ما لم ندركه..

- بماذا أوصاك؟

- لقد أوصاني بأن تكون مراسم جنازته طبقاً للطقوس المتبعة في بلادهم.

نكس باتوس رأسه وأتت كلماته مهتزة:

- هذه عادة قومه.. سنحقق له ما يريد.

ولف اناتوليوس طرفي عباءته على صدره وقال:

- عن إذنك.. أنا منهك.. سنلتقي هناك غداً..

- وهو كذلك..

- عمت مساءً.

- رافقتك السلامة.

خرج اناتوليوس من البهو، وظل باتوس هناك في ذلك الفراغ المكتظ بوجوه يليناوس كان يحاول عبثاً في غمرة حزنة إقناع نفسه بمرارة بأن الدنيا ليست فقط للقاء إنما هي للفراق أيضاً.

في تلك الأثناء دخلت عليه زوجته سامرته قليلاً وتجاهد بشتى الطرق لإقناعه من انعدام جدوى الحزن، غير أنه سرعان ما أحبطها الملل ثم يئست وتركته لأحزانه. لقد أحس باتوس بأن ثمة خسارة كبرى في طريقها إليه فقضى تلك الليلة يتذكر بطرف دامع الأيام الخوالي كما لو أنه يحاول أن يلوي ذراع الموت بقيمة حياة يليناوس.

(٣)

" نحن نملك قلب واحد.. ولا مجال في حياتنا كي نحب مرة أخرى..

وبهذا الحب لامجال أيضاً لدرء الخيبات المتواترة والأحزان الهادرة التي لا تنفك حتى نترك الحياة.. انقضت مواسم الأحلام.. ولم يعد بحوزتي سوى إيماني بأنها ستتحقق يوماً ما.. فنسيان الحلم أصعب بكثير من تحقيقه.. وحتى هذه اللحظة لم اسأم الانتظار..

لازلت أشاهد بك الحياة وأتذوق بك طعم اليوم الجديد.. وكل مساء أراهن نفسي بأن لقاءنا قد اقترب..

يشهد البحر عـــلى انتظاري.... فلقد خــلطت به حبري حـــتى أمسى غـــارق الزرقة والحزن..

استعنت ككل مرة بالجنوب كي أصلك برياحه..

استعنت بذاكرتي العتيقة كي ألازم الشاطئ ماحييت..

ووحده الموت هو الذي سيخلصني من انتظارك..

القمر يطمئنني عنك كل مساء.. وكل مساء ألتقيك على سطحه..

ولامجال لنسيانك مادام القمر في الوجود..

تذكري.. قلتي لي يومها أنك ستأتي.."

تنهدت الوصيفة دورا بعمق حسرتها ولفت الرسالة ومررتها داخل القارورة الفاخرة. نهضت بوهن تجر قدميها باتجاه الصندوق القابع في زاوية الغرفة، فتحت الصندوق ووضعت القارورة داخله بلطف، بجوار عشرات القوارير الملأى بالرسائل.. وأحكمت إغلاق الصندوق كي لا يشعر آركاد بالأمر.

وعادت تخطو على عجل وجلست على الأريكة المهترئة.. تنهدت، والحزن يستنزف قلبها وشهوتها في الحياة. لقد كانت محبطة وفي ذات الوقت لم تكن تقوى على تحدي إغراء قراءة رسائل باتوس.

كانت تئن من وطأة مقارنة مجنونة بين باتوس وزوجها الذي اعتمد عليه باتوس بالإضافة إلى خدمته في أمر كان غاية في الغرابة والسرية.

لقد كان آركاد على دراية واسعه بأحوال الطقس حيث كان يتنبأ بمواعيد هبوب الرياح وأوقات نزول الأمطار، ومتى ما لا حظ قرب هبوب الرياح الجنوبية كان يسارع في سرية تامه بحمل باتوس بعربة عادية كي لا تسترعي اهتمام أحد إلى البحر لإرضاء نهم الملك لحبه القديم.

لقد أحب باتوس في سالف الزمان فتاة من ثيرا كانت تدعى لاريسا. تعلق بها أيما تعلق وكانت تبادله ذلك. تقدم لخطبها من أهلها وقد أثار ذاك النبأ حينها غبطة وحسد جميع سكان الجزيرة، فقد كانت حسناء عصرها ولم يكن ثمة أحد يفوقها جمالاً وتأثيراً. كانت عيناها زرقاوان ساحرتان كلون السماء، وشعرها أسود حالك ناعم يتلألأ متناغماً مع حركتها. كانت لطيفة جداً،

وهادئة، وذكية، ولها ابتسامة طاغية، ووجنتين متوردتان على الدوام. كان لها حضور رهيب جارف، وكان الجميع شيباً وشباباً متيمين بها.

وعندما أزف أوان الهجرة إلى وطن أجداده، أعد العدة ودفع البواسل وهم يهمهمون السفينتين ذوات الخمسين مجذافاً إلى البحر، أضحى باتوس متسمراً ومشدوهاً أمام شرط أبوها المفاجئ بأن يظل في الجزيرة إن كان يطمح بالزواج من ابنته، فلم يكن لأبوها عزم ولا رباطة جأش لعيشها بعيدة عنه.

آنذاك وقف أمام خيارين لم يتوقع يوماً بأنهما سينفصلان عن بعض، إلا أنه كان على خلاف الآخرين عندما يخيّر بين أمرين يختار على الفور أسوأهما. لذلك لم يوافق على البقاء أو على الأقل كسب الوقت، بل ازداد إصراره على الهجرة رغم أن لاريسا كانت له بمنزلة الوطن، واختار مرغماً الإغتراب عن وطن يعرفه إلى وطن يجهل تضاريسه لطالما ألهب فؤاده وآرقه.

في ذلك الصباح الأخير كان عـلى أهبة الاستعداد للمغادرة، وفي انتظاره رفاق رحلته على متن السفينتين وكان الناس مترامين على مد الشاطئ يترقبون بفضول ورهبة لحظات الإنطلاق. كان صباحاً ربيعياً ساكناً تعانق فيه الأمواج رمال الشاطئ بلطف، ويفقان هو وهي وجهاً لوجه على مرأى من الجميع يغالبان غضبهما وحنقهما فوق الرمال الساخنة.

همس لها متمنياً:

- ستأتي.. أصحيح..؟

ردت واجمة والغضب يلتهم أطراف كلماتها:

- ستأتي أنت..؟

قال متعجباً وقد ارتسمت على محياه ملامح الاستجداء:

- ذاك موطني..!

راحت ترمق الفضوليين الذين لم ينفكوا عن النظر فيها باشتهاء فيما ردت بنبرة مليئة بالعناد:

- وهذا موطني..!

تنهد بعمق وزفر غيظه، وأجال نظره من قمم الجبال حتى وقف على أصحابه الشغوفين بالرحيل ثم قال:

- لطالما كنت أظن بأنني وطنك!!

- ولطالما كنت أظن بأن المواطن لا ترحل.

أسدل باتوس رأسه أسفاً حالما أحس بعبث محاولته، وقد افتك الغضب ذهنه فرفع كتفيه يائساً وأردف:

- حسناً.. كما تشائين.

هم باللحاق بأصحابه وعندما أدار لها ظهره انفجرت تبكي.. فاستطرد بعنفوان الشباب:

- أنا لن أنساك أبداً.

انهارت تبكي فيما كـان يجر خطواته مبتعداً، واستطرد وعيناه تسترقان النظر وراءه:

– لن أهتم لما سمعت.. سأنتظرك. وأخذ خطوة أخرى وأضاف قائلاً:

– أنا واثق من أنك ستأتي يوماً ما.

ثم شرع يخطو مهرولاً، بعد ما فقد أمله من انتظار كلمة منها، إذ أنها كافأته بأقسى رد، وهو الصمت.

رجع إلى أمه وأبيه وعانقهما بحرارة، ومرة ثانية ودعاه بفخر والآسى يلمع في عيونهم، فلو لم يكونا متأكدين من أنه يحمل في ثناياه سيرة بطل سيذكره التاريخ لما سمحا له بالرحيل، غير أنهما أدركا بأن حاجة التاريخ له كانت أكبر من حاجتهما. ولكم تمنيا أن يحتفيا به وبمرافقته، إلا أن صحتهما كانت تكفي لتمضية ما تبقى من حياتهما على ما ألفوه. ودعاه وزرعا فيه الإصرار، والاستماتة، ودعاه لأنهما تأكدا من أنه سيظل تحت رعاية الحظ للأبد، وحفظ أبوللو حتى يموت، وودعهما بعد أن شبع منهما كما كان يظن ذلك اليوم.

قفز على متن السفينة وكان يرأس الأولى برفقة يليناوس عاشق المغامرات، والثانية كان على رأسها صديقه اناتوليوس.

وفي جو كان مشحوناً بالحميمية والحرارة أعطى الإذن بالانطلاق صوب الجنوب، يناجي في سره الإله أبوزيدون في تذليل صعاب رحلته التاريخية للوطن.

كانت السفينتان تمخران عباب البحر الهادئ الوديع، وكان الحزن ينخر عباب قلبه الهائج، كان مطرق النظر صوب الأفق، يتحدى نفسه ليظهر قوياً كي لا يتفشى الإضطراب في فريقه، والحق أن معنوياته كانت تكاد أن تغرق أمامه لولا تبادله للنكات المرح المحفز بين الفينة والأخرى مع أصحابه. كانت المجاذيف تنغرس في لحظة واحدة بانتظام تحت صيحات المجذفين المحدقين في خط الأفق كعيون النسور. وفجأة سمع نداء عذب وسط جلبة البحر، ناداه يليناوس، فاستدار هو بدوره نحو الشاطئ، فإذا بها لاريسا تصرخ وذراعاها عاريتان في السماء وكان شعرها يتموج مع النسيم كعشبة بحرية ناعمة:

- سآتيك... أعدك.

هرع يجري ويقفز مجتازاً أرجل البحارة، نحو حـافة السفينة من الخلف، وصرخ لها قائلاً:

- كنت أعرف ذلك.. سأنتظرك.

ولوح لها بيده بحرارة، كانت تبكي بمرارة لفراقه، وكان في غاية السعادة لأنها ستأتي، وفي تلك اللحظة استفاقت همته وصاح وسط رجاله بأعلى صوته " هيا ياشباب.. سنكتب ما عجز أباؤنا عن كتابته وسنسطر برحلتنا هذه أروع حكايا التاريخ " ارتفعت همة أصدقائه فزادت سرعة انزلاق السفينتين على صفحة البحر وكلهم يصرخون منتشين بحرارة الموقف.

ورمح بنظره إلى خط الأفق كانت أطرافه ترتعش من هول اللحظات القادمه، وكلما كانت السفينة تندفع في البحر تزداد ضربات قلبه قوة، وتتعلثم

انفاسه كلما حاول تصور ما سيقابله في الضفة المقابلة وما سيعود عليه منها في حياته الجديدة. فأكثر اللحظات خوفاً في عمر الفراشة هي لحظات نمو أجنحتها، ليس ذلك خوفاً من الفشل بل خوفاً من وجه العالم الذي ستغير فور طيرانها.

ومرت سنتان، وقد شرع باتوس حينها في وضع أساساته الأولى في قوريني، بعد شد وجذب مرهق مع القبائل الليبية العنيدة والتي رحّب في نهاية المطاف أغلبها به وبصلة الدم التي كانت تجمعهم، وقد كان دافع ترحيبهم في الأساس هي فكرته في تأسيس المدينة برفقة خبرائه حين لامس ذلك المشروع كل أفئدة السامعين، بيد أن هناك بعض المارقين من بعض القبائل لم يرحبوا به وناصبوه العداء فأجبرهم على مشروعه بحد السيف بمعاونة القبائل التي قدمت له الولاء.

سمع أن سفينة قد انطلقت من ثيرا في طريقها إلى قوريني وأن لاريسا على متنها، طار فرحاً وتعالت بهجته حتى رآها الجميع وطفق يوزع الهدايا والهبات والمعونات على الفقراء فيما أخذ يقدم القربان تلو القربان للآلهة في شكر وامتنان.

وظل على انتظاره وترقبه على الشاطئ لتلك السفينة كالطفل، والناس ترمقه باستغراب فيما كانوا يتبادلون النظرات باندهاش. وطال الوقت دون أن يتكرم الأفق في إظهارها، وكان كلما يعود إلى قوريني في المساء يستوحي دلفى فتنقل له أخبار غير سارة كان يلفها الغموض.

بعد شهر تقريباً يئس من الذهاب إلى الشاطئ، وبقي في المدينة وانكب على نفسه في غرفته ليدخل عليه بعد فترة النبأ الذي أرخى همته وكسر انطلاقه أعواماً كثيرة.

فقد رست على شاطئ ابولونيا سفينة كانت تحمل أطناناً من أحجار الرخام لقوريني، ونبأ موجع كضخامة تلك الصخور، هو أن السفينة التي كانت تقلها قد غرقت ولا أحد يدري ما الذي حدث لركابها. ومذ تلك اللحظة واضب كالمجانين وأصبح يراسلها عند كل هبوب لرياح الجنوب. كان يكتب لها ما يجول في خاطره ويلف رسالته ويمررها داخل قارورة كان يضع بداخلها بعض النقود ثم يغلقها بإحكام ويرميها في البحر فتطفوا على سطحه وتسحبها الرياح حتى تختفي عن انظاره لتجد طريقها إليها في عرض البحر ثم يعود أدراجه.

وذات يوم تجرأ آركاد وسأله عن السبب الذي يدفعه لوضع النقود في القارورة، فأجابه باتوس بأنها من نصيب من يوصل الرسالة إليها. وكان اناتوليوس صديق عمره يعلم بذلك إضافة إلى خادمه آركاد زوج دورا التي قضت ليلتها تلك وهي ترى من خلال باتوس سعادة من كان يكتب لها لو قرأت الرسائل، كما أنها كانت تندب حظها على بعلها الجلف الذي لم يمنحها من طيب الحياة سوى فضلاتها.

لقد كانت الرسالة التي فرغت لتوها من قراءتها، هـي آخر ما كتب باتوس، وكان ذلك قبل خمسة وعشرين عاماً تقريباً قبل أن تبرد حرارة حبه، فلم يعد يحكم سيطرته على الكلمات كذي قبل وبذلك اعتزل كتابة الرسائل

لها واكتفي بذاكرته فلا العمر أصبح يصلح لذلك، ولا الرغبة كتلك الرغبة التي داهمتها الأيام بالأحداث بعد ما سحبته ظروف الملك ومعتركاته عنها، ولا الوقت يستوعب جهداً آخر غير جهد المحافظة على المملكة، وكان لزاماً عليه أن يولي الإهتمام الأكبر لما بين يديه ويدع ما في القلب للقلب، فالمحافظة على حياتنا أثمن بكثير من المحافظة على حلم، في حين أن المحافظة على مبادئنا هي أثمن من حفاظنا على حياتنا.

(٤)

في ذات الليلة تسللت يد الموت ولم تمنح باتوس فرصة توديع صديقه المخلص وقطع الوقت رغبته في إلقاء النظرة الأخيرة على هذا الرجل الفريد، فتوديع رجل كيليناوس ذي منزلة رفيعه كانت تستحق مراسم استقبال لائق للحزن لأننا حين نفقد أحدهم نستقبل الحزن بقدر فقدانه.

كان باتوس يغط في نوم عميق فيما كان أبناء يليناوس قد شرعوا ويحدوهم حزن مرير في إنشاء سقالة من الخشب ليضعوه فوقها كي يحرقوه في الصباح وينثروا رماد جثته في المدينة تنفيذاً لوصيته، كانوا يربطون الألواح بدموعهم ويشدون الحبال على قدر حزنهم وألمهم فبنوها ضخمة بقدر فقدانه أو ربما بقدر فقدان قوريني لرجل مثله، موطنه الذي أحبه كثيراً.

أبلغوا اناتوليوس برحيل صديقه وهرع هو كذلك بلباس نومه باكياً نحوه، وأبلغوا كل رفاق دربه الذين أبقى عليهم الموت. فقد فكك الزمن أوصال صحتهم ولم يبق منهم على قيد الحياة من المئتين سوى تسعين، تسعين عجوزاً هرماً، لا يملكون في الحياة سوى ماضٍ جميل يغازلونه على الدوام وبعض من العيش الكريم الذي خفت بريقه بضياع صحتهم. لقد هرعوا جميعاً ليبكوا أيامهم الضائعة وأصدقاءهم الذين سبقوهم، ففي أرذل العمر لا يبكي المرء على فقد أحدهم فقط بل يبكي عمره ووحدته أيضاً لأنه جزء منه، جزء من زمن سعيد مر اختزل فيمن عاصرونا إياه. والفقدان كارثة، إنه انهيار لأحد أساسات الذاكرة وقد يتداعى إثرها أحد أركانها، وفي أسوأ فقدان قد يكلف

انهيار ذلك الأساس انهيار ذاكرتنا برمتها وحينها لن نأمن بقاء ذاكرتنا الجديدة وحتماً سيأتي اليوم وتتهاوى لأنها بنيت عـلى أنقاض ذاكرة كان حجر الأساس فيها يوم لن يتكرر أبداً.

في تلك الليلة لم يبلغوا باتوس فقد آثروا إبلاغه في الصباح الباكر كي يحضر مأتمه الجنائزي، كانوا خائفين على صحته، خائفين من حزنه، ومن انهيار ذاكرته.

التقى الجميع هناك في بيته وكانت غرفته مكتظة بأصدقائه، منهم من كان جالساً على الأرض وعيناه زائغتان في السجاد ومنهم من كان جالساً على الأريكة يتأمله بعينان مغرورقتان بالأسى ومنهم من جلس على طرف سريره يلامس جثته الهامدة بأطراف أصابعه.

كان الصمت مطبقاً عدا صدى لبكاء ونحيب زوجته وبناته كان يدوي في الممر المفضي إلى الغرفة. كان ضوء الشموع يرتعش فيتلاعب بظلال الحاضرين وفي كل ارتعاشة تلمع دموع أحدهم، كانوا مأخوذين بجلل المصاب غير مصدقين ما حدث وقد راحوا يتأملون من خلاله أنفسهم كلٌ بطريقته وهو جاثمٌ في سريره وسحابة الشحوب الرمادية على وجهه.

فينة بعد أخرى كانوا يرمقونه بخلسة وكأنهم ينتظرون منه كلمة وكلهم يدري في قرارة نفسه بأنه قد صمت للأبد. بصوت متهدج قطع اناتوليوس دابر الحزن وقال وعينه الدامعة متعلقة بصديقه يليناوس " كل ماضٍ عزيز أذكره بلحظاته التي كدنا أن نشعر فيها بالسعادة.. كل قصة جميلة رويناها كنا أبطالها..

كل دمعة هطلت من فرحة شجية أمتعتنا وكل دمعة هطلت من حزن سحيق من معاناة أجبرتنا.. كل أنشودة ارتفعت وفاحت في الآفاق.. ونحت أسمائنا المتقن في شبابنا على الصخور المقابلة للطرق وفي الأماكن الشاهقة والسفوح المستحيلة في ثيرا.. كل هذا كان من إدراك غائر في قلوبنا أن كل خطوة نأخذها بأرجلنا للأمام ستفقدنا زمناً ثميناً لم ولن يرجع.. آه يا صديقي أكنت تدري بأن نظرتك إلى قوريني من على هذه الشرفة عند المغيب كانت الأخيرة. غالبه البكاء ومسح الدموع بطرف كمه فيما انفجر أحد الأصدقاء الجالسين بجانبه يبكي بانفعال.

أجال النظر وتفحص أصدقاءه واحداً تلو الآخر ثم أردف بغضب "هل سيتسارق جميع من كانوا حولك ممن أحببتهم وممن كرهتهم من تذكرك.. هل سيشكل الموت حاجزاً بينك وبين من أحببتهم.. وهل بوسع الذاكرة الإبقاء عليك بينهم أبد الدهر.. كلا.. لا أعتقد بأن الدهر سيترك الذاكرة تعبث بنظامه – وصاح بصوت أعلى – كل شيء قد انتهى.. فلن يتبقى منك لنا سوى حفنات من الذكريات مترامية في أصقاع قوريني.. تشاركنا في بعضها وشاهدها البعض وسمعها البعض الآخر.. تعبث بها رياح الزمان كما تشاء تتقاذفها يمنة ويسرة لتركنها في الزوايا والحفر والشقوق والأزقة الصغيرة وبين الأوراق المتساقطة في فصل الخريف.. ظلت لك فتاتة من أمل وقطعة من ثقة في أناس كنت تكن لهم التقدير والمحبة ولطالما ظننت بأنهم يحبونك.. وهم من سيجمعون تلك الحفنات المبعثرة من جديد ليحفظوها أو على الأقل كي يتذكروك بها بين الحين والحين.. فسيكفيك حينها أنك ستؤنسهم عندما يتذكروك في حياتهم.." انفجر

باكياً فهم به أحد الاصدقاء وعانقه بحرارة فيما كان يزداد نحيبهما كلما تذكر أحدهما موقفاً له.

لم يبق منه سوى أشياء للذكرى بقايا عمر تميز بالتفاؤل وعمرٌ امتزجت فيه كل روائح القدر واختلطت في سمائه جميع الأيام، لطالما أقحم الحب حين لم يكن له مكان في قلوب من أخطأو في حقه، كان ذكياً في نصب الفخاخ للحظ و كان يحب وطنه وفي الواقع لم يبق له سوى قبره وحصيلة من أعقاب أيام خبأتها قوريني على الزمن كانت في أمس الحاجة إليهن كي تتفاخر ذات يوم لكل من يأتي من بعده بجمالها وروعتها من خلاله.

توفي يليناوس هكذا وببساطة، وكأنه لم يعش يوماً، قبل أن تشرق الشمس تسلل الموت واقتلع روحه وسرى على إثر ذلك الشحوب إلى قوريني، فلا يوجد أقسى من نبأ موت رجل عظيم، لأنها ليست مجرد خسارة إنسان بل هي خسارة قيم وفضائل وجمال.

القبر أقسم على أنه موجود بداخله وأنه أمسى رفات والذاكرة كانت تردد بأن أمثاله لا قبور لهم، كان القبر متأكد من موته وكانت الذاكرة تؤكد خلاف ذلك.

لقد أضحى قبراً، قبر يفزعك صمته وتحرسه الذكرى إلى حين يبرد ترابه الشاحب.

لطالما كان يردد بأنه لا يهتم بأن يعرف الناس أين قبره إنما يهمه هو أن يعرف الناس أين كانت حياته وكيف كانت، لم يكن يخاف الموت بقدر ما

كان يخاف النسيان " أنا لا أخاف الموت مادام سنة الحياة.. أنا أخاف النسيان لأنه سنة بني البشر " هكذا كان يقول، كان متطرفاً، لأنه كان يؤمن بأن الحياة ليست سوى مجابهة مع الموت لم نخترها لكن حظوظنا فيها أكثر من الموت بكثير.

لقد ترامت أمجاده بين حقول السلفيوم وعلى صواري سفن قوريني، بين القنوات والمسارح وبين الزهور وعبيرها وبين الفراشات وظلالها، فلقد نسج سيرته بخيوط الأبدية تلك الخيوط التي تفرزها قلوبنا عندما نحب أوطاننا. لون قوريني بألوان الطيف واحترف الحب فلم يفشل في حياته حين أدرك أن الموت ليس عائقاً للمحافظة على حبه وأن عدم وجود الحب هـو العائق للمحافظة على نجاحنا في الحياة.

لم تكن قوريني مسقط رأسه ولم تكن موطن أجداده غير أنه كان ينتمي لها بالحب فمسقط قلوبنا هو موطننا وليس مسقط رؤوسنا ورابطة أرواحنا هي الرابطة الحقيقية وليست رابطة الدم وجذورنا في مواطننا ليست على علاقة بقدم أجدادنا بل بما قدمناه فيها. إن الوطن جراب يحمل الأشياء التي تخصنا دون غيرنا والتي تعني لنا ما لاطاقة لنا على وصفه، إنه ذاكرتنا وكل ماحوته قلوبنا وتمسكت به، الوطن هو عمر عشناه، وكل ألم ذقناه، وكل سعادة جبناها، الوطن بين أناس فوق الثرى وتحته، هو الصباح والمساء، هو الصيف والشتاء، هو الأرض والسماء، الوطن هو الحياة.

***

هزّت رياح الخريف كل ما تبقى من أيام الصيف بعد اصفرارها وتساقطها تباعاً وفسحت للغيوم مجالاً واسعاً للإقامة فوق قوريني.

في صباح تلك الليلة الكئيبة كان الطقس جميلاً وكانت حديقة القصر الخلفية تعج بشتى العصافير المغردة دون توقف، ترفرف ذهاباً وإياباً بين الأشجار، وتنطلق في اسراب وتعود بين كر وفر كما لو أنها في حرب.

لم يكن باتوس على علم بعد بنبأ وفاة صديقه بل كان يتحين الوقت المناسب لزيارته. كان جالساً في الحديقة يتأمل ريشة الفنان المنهمك في تلوين زهور نبتة السلفيوم بماء الذهب على جدار القصر المقابل لممر الحديقة والتي قد شرع في رسمها منذ يومين، كانت تلك النبته الثمينه وراء ثراء قوريني واستقرارها حيث كـــانت تُصدّر إلى شتى أصقاع العالم وكانت تغدق عليهم المكاسب الهائلة.

أصبح يتابع حركة أصابع الرسام وهي تتحرك باتقان وسط الألون فهمس لنفسه " إن عمر هذه النبتة سيكون أطول من عمري.. أجل.. لقد رسمت بماء خالد – وابتسم ساخراً من نفسه – أما أنت سيكون عمرك كعمر تلك الريشة التي رسمت بها "

تنهد في غبطة وراح بناظريه إلى السماء " إلى ما ننظر.. وما الذي أوهمنا به ذلك الأمل..! إلى غد لم يتعلم بعد أصول الضيافة.. أم إلى ماضٍ قد غرس أنيابه ودسّ سم الخلود في أحشاء أذهاننا..؟ " وتساءل فجأة " لقد تأخر آركاد بالمجيء.. يجب أن أذهب إلى يليناوس.."

في تلك الأثناء كان آركاد عند بوابة القصر، مشتت الفكر، منقبض القلب، يحاول جاهداً إيجاد الطريقة المثلى لإبلاغه، كان يذرع البوابة بقلق شديد متمنياً في قرارة نفسه أن يأتي أحدهم ويبلغه بالنيابة عنه ليزيح هذه الحيرة التي أغرقته في لجة من الغم.

وبينما هما على هذه الحال أخذت الرياح في التصاعد بوتيرتها تجر أكواماً هائلة من الغيوم المتراصة. لاحظ باتوس ذلك فهتف للرسام:

- يبدو أن السماء ستمطر.. أسرع.

ضاعف الفنان من سرعته في التلوين فيما طفق صبر باتوس من طول انتظاره وما لبث حتى بدأت أول قطرات المطر بالهطول فظهرت علامات الاحتفاء في قورينى وتكشّف أمرعشقها للأمطار حين انعكست على قطرات المطر أشعة الشمس التي لم تغمرها الغيوم بعد، وأصبحت السماء كما لو أنها تمطر لؤلؤاً.

هرعت أسراب الحمام بالتجمع كانت تثير السكون بصخب أجنحتها وهي تحط بازدحام على عتبات وشرفات القصر لاتقاء البلل.

في تلك الأثناء تغلغلت الأمطار في ثوب اركاد فسرت موجة من البرد في جسده مما دفعته إلى المجازفة بإبلاغ باتوس وتحمل تبعات ذاك الخبر المفجع. انطلق بخطوات واسعة متجهاً نحوه وهو يقفز فوق الأزهار، وفوق خوفه، حتى وقف أمامه.

كان باتوس واقفاً يهم بالدخول وحين شاهد أركاد صرخ غاضباً:

– أين كنت.. ألا تعلم بأنني أرغب بالذهاب إلى يليناوس..

التقط اركاد أنفاسه وهو مطأطئ الرأس وقال بتردد:

– لقد كنت واقفاً عند باب القصر فقد كنت أخشى أن يصيبك مكروه مما أحمل من أخبار.

ابتلع باتوس ريقه وجرى الذعر في دمائه فجأة.

ودفعة واحدة دلق آركاد نبأ الوفاة بعد مخاض عسير:

– لقد مات سيدي يليناوس..!

جحظت عينا باتوس من هول ما سمع:

– أعد علي ما قلت.

كرر اركاد الخبر بتردد أكثر وهو يختلس النظر إليه وما إن أكمل كلامه حتى تداعى قوامه وانجرف على الكرسي فيما أصبح يدور برأسه يمنة ويسرة وعيناه زائغتان في الفضاء.

صاح فجأة بعد أن تنهد قوته واستعاد رباطة جأشه:

– اذهب بسرعة وجهز لي العربة.

أحنى اركاد رأسه مع الأمطار وقال بنبرة مرتعدة:

- لكنها تمطر ياسيدي.

فصرخ حتى بح صوته:

- قلت لك اذهب. انطلق آركاد بأقصى سرعته نحو الاسطبل، أما باتوس أسند رأسه على الكرسي وقد تبلل بالكامل فرأى الفنان واقفاً متسمراً لا يلوي على شيء:

- تابع عملك. فأرخت أوصال كلامه حشرجة البكاء وتنهد وهو مغمض العينين واستطرد بعصبيه:

- لم يمت يليناوس.. تابع عملك كي يظل حياً.. لاتقتله.

عاد الفنان إلى عمله بارتباك وهو يسمع باتوس:

- النبتة التي تتفنن برسمها الآن كان يليناوس وراء جعلها نبتة بهذه القداسة.. لونها بأجمل الألوان واتقن رسمها.. ارسمها ولوّنها على كل جدران قوريني. وسكت مخافة البكاء أمـام الرجل وظل زائغ البصر ومياه الأمـطار تجري عبر تجاعيد وجهه التي حددت ملامح الزمن من خلاله.

ظهر آركاد من بين الأمطار وهتف بنبرة مشفقة:

- العربة جاهزة يا مولاي.. لننطلق.

كان المطر يهطل بغزارة حتى أوحلت الطرق تحت المارة العائدين إلى بيوتهم في سكينة عجيبة. إنها عربة سيدي أناتوليوس. قال آركاد ذلك حين رآها

قادمة نحوهما وبمجرد أن وقفت بجانبهم رآه باتوس فغضب غضباً شديداً وصرخ بصوت عال من شدة المطر:

- لماذا لم تبلغني بالأمر.

أجابه بذات الوتيرة:

- لقد كنا بانتظارك.. فقد قلت البارحة بأنك ستأتي لزيارته في الصباح.. وخلت بأن ثمة أمر طارئ قد حدث منعك عن المجيء.. هيا إلى جنازته.. اتبعوني.

لفت عربة أناتوليوس على عجل وعاد وهما وراءه تحت الأمطار المنهمرة على نحو حثيث عبر الطريق المفضي إلى أعلى قمة جبل يقع شرق المدينة حيث نصبت السقالة على حافة القمة وكان يليناوس راقداً على سطحها والناس متجمهرون تحته في حزن وألم وبرد.

بعد مسير دقائق وصلوا إلى هناك ونزل باتوس من عربته بمساعدة آركاد وأخذ يسير بخطى سريعة يشق الناس المتجمعين من كل حدب وصوب وكانوا يفسحون له الطريق باحترام ويرمقونه بامعان وتركيز شديدين. في تلك الأثناء كان أحد أبناء يليناوس يتسلق السقالة وبيده شعلة وقد كانت تلك المرة الرابعة التي يشعلونها وتنطفئ بفعل المطر. انتبه باتوس لذلك فناداه " توقف.. توقف "

ووقف الابن مستغرباً ذلك الأمر إلا أنه سرعان ما رضخ حين رأى الملك وراح ينزل بحذر خشية الانزلاق بعد تغلغل الخشب بالماء والوحل فيما

صاح اناتوليوس بصوت عالٍ مخاطباً الملك " تعال إلى هنا يا مولاي إن المطر شديد " وكان يشير بيده نحو شجرة خروب.

***

تحت الشجرة رفع الملك يده أمام ترقب الحاضرين فعم الصمت واشرأبت الأعناق، كان البخار يتصاعد من أنفاسهم فيما كانت الأمطار تنهمر بوتيرة هادئة.

وخاطب الناس بصوت جهوري مهتز ينم عن حزنه البالغ:

" يجب علينا أن نتعلم الموت قبل أن نتعلم الحياة.. حتى نعلم.. متى يكون الحزن ومتى يكون الفخر.. ومتى يتحتم علينا قول أننا سعداء حقاً.. "

سحب نفساً عميقاً من الهواء البارد المعطر برائحة الغابة المنتشية بالأمطار واحتبس أحزانه والجميع من حوله مرهفي السمع صامتين وعلامات التركيز على وجوههم ثم أردف بمرارة:

" لا أحد ينجو من الموت.. وليس كل من يموت نفخر به ونشعر بأننا سعداء حقاً بصحبته.. فهنا تتكلم الأوطان ويفضح أمر حبها للعلن.. هنا تعلن عن أحقيتها في مواطنيها.. هنا يتجسد موقفها للعيان.. اتجاه كل من كانت هي موقفهم طوال حياتهم.. وهنا يبان انشغالها وقلة صبرها على بعد من أحبتهم.. "ساورته رغبة جارفة بالبكاء غير أنه تحداها بصوته العالي "كيف لا.. والمواطن لا تمنح سعتها و لا تنفخ روح الخلود سوى لمن اعتبرتهم مواطنيها بالفعل..

كيف لا.. والمواطن لاتؤتي ثمارها سوى لمن استزرعها.. هنيئاً لك يا يليناوس.. فليس كل من يموت يولد من جديد.. وليس كل من لم نعد نراه نظل متذكرين له. " وعرج بناظريه إلى السماء فيما تابع يقول " انظرو إلى السماء.. انظرو إلى قوريني.. إنها ترفض أن يصبح رماداً.. أبت قوريني إلا أن تحتضنه إلى الأبد.. أن تمنحه المجد.. أن ترتاح عليه.. ولا راحة لها إلا في أحضانها.. فهكذا فقط ترتاح الأم على ابنها.. ليكن لك شرف الابن.. فالابن لا يصبح ابناً لأمه إلا بالبر وليس بالإنجاب.. لكم أغبطك على محبتي.. وفخري بك.. لك الهدوء.. لك الأمان.. ولي ذكراك.. لك المجد.. ولي الشرف بتعرفي عليك.. استرح.. فلامجال لنسيان الشرفاء.. لقد نعمت بالنزاهة والمثابرة حياً.. فانعم بالخلود ميتاً.. وأعدك بأنني سأرافق اسمك ولن أملّ صحبته ما أوتيت من عمر.. فهو الذي تبقى لي من بعدك.. فليس أبنائك هم من سيكشفون للأغيار مدى تميزك لأنهم لن يعيشوا للأبد بل هو اسمك الذي نقشته ببراعة على أبهى جدران التاريخ.. نم بسلام وقر عيناً – أجال النظر في الحاضرين بحثاً عن ابن الفقيد ولما رآه خاطبه قائلاً – أنزلوه من هناك المطر شديد ولن تتوقف إلا إذا أنزلناه.. ادفنوه في قبر يليق به.. وانقشوا على بابه هنا يرقد من كان صاحياً طوال حياته.. ساهراً من أجل وطنه " ثم هوى على الأرض ببطء حتى جلس وانهال باكياً واندفع اناتوليوس نحوه يشق الحاضرين ويزيحهم بعنف حتى وقف أمامه مباشرة، فقام باتوس وعانقه بقوة وشرعا ينتحبان سيرته وأيامه.

لقد انطفأت الشعلة للمرة بفعل المطر، وانطفأت حياة إنسان بفعل الزمن بيد أن حبه لوطنه أنار أكثر ولامست هالته كل شك في حبه وكل شك في

طموحه وأحلامه وظل نبراساً في سماء الأمجاد، تلك السماء المليئة بأناس تسطع بأخبارهم وتضحياتهم، تلك السماء التي لا يقيم في فسيحها أحد إلا بتذكرة دخول قد تكلفه حياته، فالمبادئ لا علاقة لها بالمواسم ولا بالظروف لأنها ظرف قائم بذاته وموسم يبدأ بميلادنا وينتهي بموتنا، هي ليست من أجل أن نحيا بها إنما من أجلها نحيا، ومن أجلها نموت، لأن قيمة الإنسان الحقيقية بما يحمل من مبادئ إنها الهوية التي يتعرف بها التاريخ علينا، هذه الهوية لا تمنح إلا لمن أضاف إلى الحياة شيئاً ولو كانت إماطة أذى أو كلمة طيبة أو ابتسامة صادقة.

(٥)

ظهر القمر من وراء خط الأفق بحلة برتقالية وسط سواد حالك ولألأة طفيفة على صفحة البحر وكانت النجوم ترف بنورها وتملأ الفراغ الدائري للسماء.

مر على وفاة يليناوس أكثر من أسبوع كـانت تجر أيامه أصفاد الكآبة والبؤس فـي المدينة. كان باتوس وصديقه اناتوليوس ويرافقهما آركـاد جالسين على الشاطئ في زيارة تفقدية أخيرة لأيام غابت للأبد، في ذلك المساء الهادئ كانت تصحبه ذاكرته وتطمئنه على مواقف وأماكن كانت لاتزال شاهدة على وجود صديقه، قبل أن يأتي إلى هناك وقف عند قبره يتحسس كلماته المرهفة بمرارة ومشى عبر طرقاته يقتفي أثره ودفء خطواته وعاد إلى بيته إلى جدران استبدت فيها الشقوق وتعمدت الاحتفاظ بملامحه.

كان ذهن باتوس يعج بأعتى الأحزان، وأحنك الأحلام، وأدهى الأمنيات، وقليل القليل من الصبر، الذي كان كافياً إلى حد ما لقهر ما أنتابه، وكان التفاؤل الخفي وراء تلك الهمة التي اتسم بها صبره.

لقد جاؤوا إلى هنا قبل مغيب الشمس ولم يبرح باتوس مكانه منذ لحظة قدومهم كان جالساً يقابل البحر الذي سلب منه أحد أجمل أحلامه، وذلك اليوم كان نزهة قد جادت بها السماء على الأرض كي تلتقط أنفاسها قبل أن تشرع في المطر من جديد.

بنبرات سابرة ومحياً تناقض بالسعادة والحزن قال اناتوليوس وهو مطرق النظر في البحر:

– مرّ زمن بعيد على آخر لقاء لنا على هذا الشاطئ.

لم ينطق باتوس وآثر الصمت فيما استرسل اناتوليوس:

– أتذكر كل الأصدقاء.. لقد ابتعدو كثيراً.. موت.. مشاغل.. نسيان.. اختلاف.. عداوة.. هذه ثمرة الصداقة.. جمالها دائماً قبل نضوجها.

أومأ باتوس برأسه ومالبث حتى قال، حين افتعلت فيه عاصفة وثورة من التساؤلات والأجوبة الناقصة، ماطاً شفتيه باستغراب:

– مالي لا أرى سوى الذكرى.. ولا أشعر إلا بزمن قد مر وانتهى..! كل ما أمامي إيحاءات صامتة.. تدفعني لاستجلاب مواقف وأناس قد نال منهم الزمن..!

هل هي الشيخوخة.. أم ماذا..!! هل هـــو الشبع مـن الحياة والحنين إلى أيام عطشي إليها..!! ألهذا الحد تفقد الأشياء التي من حولنا قيمتها وبريقها بإشارة واحدة من اليأس..!! ألهذا الحد يملك اليأس ذلك الجبروت حتى يقلب أحلامنا رأس عـــلى عقب..!!. بشيء من العصبية نهره اناتوليوس:

– تفاءل يارجل.. تفاءل فلا يزال في جعبة الحياة الكثير مما لا تتوقعه.

أغمض باتوس عينيه باستهجان وقال:

– إنه أرذل العمر وأسوأه يا اناتوليوس.

رد عليه اناتوليوس بحرارة:

– كلا.. أرذل العمر وأسوأه لا يقاس بحصيلتنا من السنين بل يقاس بحصيلتنا من اليأس والاستسلام.. استنشق عبق البحر.. غازل أمواجه.. أعرج بناظريك نحو السماء وحلق بهما إلى أسمى نجمة فيها.. شاهد.. تمعن الأشياء التي من حولك.. الأشياء التي بحوزتك.. الكون مليء بالألوان.. بالألحان.. بالأمل.. بالبهجة..

لا تأخذ الحياة على محمل الجد.. إنها لاتستحق ذلك.. هي أقل من ذلك بكثير خذها على محمل السخرية.. فالحياة لا يروق لها السخرية إلا على الجادين فيها..

انظر أمامك عن كثب.. كل شيء يسير بموازاة الزمن بانسيابية.. وخفة.. ولطف.. ووحدهم البشر هم من يعرقلون أنفسهم بأنفسهم.. كل شيء لك الخيار في مجابهته.. وحتماً لن تخونك القوة للوقوف ضد تياره.. إلا الزمن.. لأنه هو الذي يمدك بالقوة.. لا تجهد نفسك.. وافسح الطريق للسعادة.. وعش كل يوم بيومه.. وكل لحظة بما فيها..أطلق العنان لأحلامك ودعها تناطح السحاب وتجوب الآفاق.. خذ نفساً عميقاً وازفر كل الأحزان التي تراكمت على صدرك.. ابتسم.. قدر ماتستطيع.. ابتسم.. كي يبتسم لك كل من حولك وحينها سيبتسم قلبك وستشرق شمسك من جديد.. وستزيح ظلام كآبتك الذي جثم على فؤادك بالوحشة والعزوف وجعل من نفسك وكراً لكل الأحزان.. كل شيء خلق لكي يكون سبباً لسعادتنا.. إلا أنفسنا.. أتترك كل الأشياء وتتبع ماتمليه عليك نفسك..!! ألهذه الدرجة تفتقر إلى الشجاعة كي تقول لها اخرسي..! ألهذا الحد تصدقها وتكذّب كل شيء غيرها..!! أنت

ملك.. والأهم من ذلك أنت صديقي.. لا أحب أن أرى نفسك تقودك كدابة كما يحلو لها.

أدار باتوس وجهه ببطء نحوه ولم يعقب على كلامه ومكث يستمع:

- إن الأمل لا يعني انتظارك لما تتمنى بل يعني انتظارك لانتظار ما تتمنى.. فالأمل حتى وإن كان في المستحيل هو الذي حافظ على البشر من الانقراض.. ولا فائدة ترجى من الدموع فالشمعة لا تفنيها إلا دموعها.

لم يظهر باتوس أي ردة فعل وظل شارداً بنظره في البحر يستنشق فوحه مع كل موجة تضرب البر فيما نهض اناتوليوس وقال بنبرة ازدراء:

- أعرفك جيداً أنت تطرب للحزن ويستهويك دائماً الشعور بالندم.

رمقه باتوس بنظرة تومض غضباً وقال:

- أجل.. فأنا الآن حزين لأنني لم أقطع كلامك بصفعة على وجهك ونادم بشدة لأنني جئت معك إلى هنا.. هيا.

- إلى أين..؟

أجابه وهو يقوم:

- أتحسب نفسك ابن العشرين عاماً أيها العجوز المهترئ.. سينفرد بنا البرد وسيقضي علينا.. الجو بارد جداً.. وجوفي مهجور لم أذق طعاماً بعد الغداء.

قهقه اناتوليوس وأوصل ضحكته قائلاً:

– انظر.. لقد شعرت بالبرد والجوع.. هذا اعتراف لي رغماً عنك بأنك بدأت تشعر بالحياة بعد كلامي " ثم قهقه مجدداً بصوت عالٍ.

ادعى باتوس بسخافة الأمر متصنعاً عدم مبالاته وقال بنبرة هادئة:

– يبدو أن الزمن قد أتلف عقلك. ونادى آركاد لتقريب العربه.

وعادا إلى المدينة وهما يتجادلان في كل شيء حتى في صمتهما وطوال الطريق كان باتوس غاضباً وكان اناتوليوس في غمرة نشوة المنتصر.

***

قبل أن يصل باتوس إلى القصر، قامت دورا بتغطية الملكة فيرا بعد أن أوصلتها إلى السرير بمساعدة الطهاة حين سقطت أمامهم فجأة غائبة عن الوعي وهي خارجة من المطبخ. ولقد تكرر ذلك معها فـي الآونة الأخيرة وعجز أطباء قوريني عن اكتشاف السبب الفعلي ولغز هذا الإغماء.

كانت مضطجعة على السرير تئن من الألم الذي ينهش بطنها دون هواده:

– لا تبلغي أحداً بما أصابني. قالت ذلك وهي تحت سعير الألم.

فصاحت دورا معترضة على كلامها:

– ولِمَ.. يجب أن أعلمهم بذلك كي يرسلوا في طلب حكماء من الفراعنة أو اثينا..!

زفرت هواء محموماً بحرارة الألم:

- سأرتاح من ذلك الألم قريباً - وحدقت فيها بجدية وتابعت - عديني بذلك.

ترددت بادئ الأمر ثم اومأت برأسها على غير رضا وأتت كلماتها يائسة:

- حسناً.. أعدك - ورفعت حاجبيها - لكن بشرط.

التفتت إليها بجهد فيما أردفت دورا:

- أن أظل بجانبك ولا تذهبي لأي مكان إلا وأنا معك.

تبسمت فيرا في حبور وامتلأت عيناها بالدموع الحارة المتلألاة بفعل أنوار الغرفة، كانت تتأملها وصدرها يرتفع وينخفض بوتيرة سريعة وقد سيطر عليها الإحساس بالمغادرة ولعلها كانت صادقة فهو إحساس قلما يخيب.

ربتت على ظهر يد دورا السمينة الدافئة وقالت بحزن عميق:

- أشكرك على كل شيء.

أمسكت دورا بيدها بقوة وقلبها يحترق ودموعها تتدفق بغزارة:

- أنا التي يجب أن أشكرك على كل شيء.

أجالت فيرا النظر في الغرفة الفسيحة بالألوان والأثاث الزاهي وقالت بصوت مرتعش:

- إن حدث لي شيء فهذا القصر بمن فيه سيظل أمانة في عنقك.

لم تتمالك دورا نفسها وأجهشت بالبكاء واحتضنت فيرا وهي تصيح " لاتخافي.. فأنا لن أتتركك.. وأنت لن تتركيني.. صحيح..؟ "

ردت عليها فيرا والعجز قد استحكم فيها " طبعاً.. بالتأكيد..لن أتتركك.. يكفي يادورا.. يكفيك بكاء.. "

واصلت دورا تبكي فانهارت فيرا بدورها وهي الأحوج إلى البكاء.

وبعد قليل همست فيرا " هيا قومي.. سيأتي باتوس وأنا لا أريده أن يعلم شيئاً.. هيا قومي أرجوك " وقامت وهي تستنشق دموعها، مسحت دموعها على نحو مرتبك ودثرت فيرا جيداً ثم قالت لها وهي تتأملها:

- عمتِ مساءاً.

- وداعاً.

خرجت دورا بخطى واسعة إلى بيتها والحزن يدوي في فؤادها، وبينما هي تجتاز الممر قابلها باتوس وقد ارتاب من تهورها في سيرها:

- ما بك..!

- لاشيء.. لقد تأخرت على الأولاد.

مال برأسه نحوها يتفحص وجهها الباعث للريبة:

- وما الذي أخرك..!

تصنعت ابتسامة عريضة متقنه وأجابت:

- أخذنا الحديث أنا ومولاتي دون أن ندري.

- حسناً. ثم ابتسم بمكر وضرب كفه على جبينه وأردف "كدت أنسى.. لن يعود آركاد إلى البيت اليوم.. لقد أمرته بمهمة وقد تستغرق عشرة أيام "

أومات برأسها ببرود وقد أبدت رضاها عن الأمر فضحك باتوس:

- كنت أمزح معك.. إنه في البيت وأعتقد بأنه ينتظرك.

أصابها الخجل واحنت رأسها ثم استدارت وتابعت سيرها على نفس المنوال.

دفع باتوس باب الغرفة بهدوء وأغلقه بذات الوتيرة الصامته، وقف عند السرير ومد عنقه ليرى فيرا إن كانت نائمة أم لا.

رأها تغط في نوم عميق، أو هكذا بدا له، لأنها لم تكن نائمة. بدل ملابسه وكان لا يزال يشعر بالنشاط بعد وجبة العشاء الدسمة ولم تراوده فكرة النوم بعد، ذهب يخطو بهدوء إلى النافذة وسحب الستار وفتحها ببطء شديد خشية إيقاظ فيرا، وفي ذات الوقت لم يشأ أن يفزع الحمام الجاثم على العتبات.

سرت رائحة الحمام وأعشاشه الرطبة في سماء الغرفة تسحبها نسائم وديعة كانت تداعب الأوراق والحشائش في الخارج. تأمل الأرجاء من هناك

وراح يتجول في الظلام المرقط بالأنوار الخافته ويتناهى إلى مسامعه صرير الحشرات ونباح الكلاب البعيد، ثم عرج بهما إلى السماء فبان له القمر وقد أحاطت به هالة من نوره، هز رأسه، وابتسم في شجون فيما كان يتنهد سعادة كانت مندثرة منذ زمن بعيد، زفر خواطر لم تكن في حسبانه، وقال في نفسه " غداً ستهب رياح الجنوب..! " وتدفق حنينه إلى أحداث مقفرة أينعت من جديد وكأنها لم تمت، نفض القلب نفسه من شدة اشتياقه، من كل يوم مرّ من غيرها، والتي تراكمت على قلبه حتى أثقلت كاهله وترامت تلك الأيام وكأنها لم تكن وعـــاد إلى سابق عهده بنبضات مرتعشة لطالما ألفها، كان يدرك بأنه مجرد عبث ذاكرة لاغير، وكان يدرك أيضاً بأن ذلك العبث كان أقل من عبث الواقع الذي لم يعد يطيقه، كان حائراً، تائهاً، بين أمس انقضى ولا أمل لعودته، وبين غـــد فض متعته إخلاف الوعود.

خاطب نفسه بتهكم " لقد بلغت نفسي من الحمق مبلغاً أخجلت فيه الحمق من نفسه..أي حماقة هذه..!! أربعون عاماً.. لم تثنيني عن تذكر غريقه..؟ كنت أظنني بطل " ابتسم واستطرد " ولِمَ لا.. أليست بطولة أن أحافظ عليها أربعين عاماً في ذاكرتي " صمت قليلاً ثم أردف يائساً " كل ما فات قد فات.. الذاكرة فقط.. لم تقع في قبضة الزمن.." تساءل في نفسه " ما هي الحيلة التي تقوم بها حتى تنفذ من الزمن..؟ " عاد وأبتسم " وما الحيلة التي ينفذ بها الزمن منا..؟ وما الحيلة التي ننفذ بها من الذاكرة..؟ " هز رأسه كالمجنون " الكل ينفذ من الكل..لا شيء يسيطر على شيء " تثاءب فكشر عن بقايا أسنانه الهرمة التي تداعى أغلبها، وبينما هو كذلك ابتسم وجذب لحيته وفكر "حتى النوم..

يملك وصاية علينا.. يأخذنا إلى مكان لم نره من قبل..أشعر بأنه مكان أخاذ.. ليته يسمح لي باصطحاب ذاكرتي معي.. كي لا أنسى حين أستيقظ كل ما رأيته في نومي.. "

أغلق النافذة بذات الوتيرة التي فتحها بها وأسدل الستار وعاد إلى سريره، كان يسير بحذر كي لا يزعج زوجته واستلقى ببطء على فراشه وجاس تحت الغطاء.

وحالما استراح في سريره التفت إلى زوجته التي كانت تقابله ضامرة الوجه، خافتة الألوان، وقال في نفسه بحزن " حتى أنت قد أخذ فيك الزمن مجراه.. ولا مجال إلى المستقبل.. وإلى الأحلام.. وهل تفتح قلوبنا أبوابها على مصراعيها للسعادة من غير أن نحب..!! كلا.. فالحياة الحقيقية هي حياة الحب في قلوبنا "

زفر ضحكة حميمة على هذه الحياة المليئة بما لايخطر على أحد وأغمض عينيه ببطء تاركاً ابتسامته كما هي على وجهه.

فتحت فيرا عيناها بخلسة ورأت زوجها مبتسماً فاستفاقت السعادة بقلبها وعاد دافع التشبث بالحياة بالدوران مع الزمن كما لو أنها لم تكن مريضة فقد أحست بتوهج الأحلام الدافئة في قلبها البارد، من تلك الابتسامة التي داعبت قلبها وانستها ما كان يحيط بها من آلام وهواجس وبالحب فقط استطاعت أن تنام.

***

انتصف الليل، كانت الغرفة مظلمة، تعبث بها بقايا أنوار من لهب المصباح المركون في زاوية الغرفة، كان يتهادى في فراغها جاهداً دون جدوى في غمر كل الغرفة.

قامت دورا من السرير بعد أن فزع النوم من أمواج الأرق المتلاطمة وبعد أن دب الذعر فيها وهي تفكر فيما لو حدث مكروه للملكة، أخذت تخطو وتحدوها رغبة جارفة في قراءة إحدى رسائل باتوس التي أسدلت عليها الأغبرة صفة النسيان، اتجهت بكسل ينافي نهوضها المفاجئ تجر قدميها الضخمين نحو المصباح الزيتي تناولته من مقبضه ورفعته بلطف واستدارت باتجاه الصندوق تنشد الرسائل.

ولما وصلت إلى هناك وضعت المصباح على الأرض وفتحت الصندوق بحذر وأخرجت منه قارورة دون تركيز ثم أعادت إغلاقه ووضعت المصباح فوقه.

جلست كـي تلازم النور على الصندوق حتى أحدث صريراً من وطأت وزنها وفتحت القارورة وقلبتها رأساً على عقب وجعلت تهزها إلى أن مرّت الرسالة إلى الخارج، التقطتها ثم وضعت القارورة على الصندوق وفردت الرسالة بنهم وأمالت صفحتها إلى النور:

".. كي لا أنساك.. لازلت أكتبك كي تقرأيني..

من أحببناهم يوماً.. من طافوا بأرواحهم حولنا.. وعبروا سماء أحلامنا..

من شقوا مشاعرنا.. وألهبو حرارة اشتياقنا كلما مر طيف خاطرهم..

من دخلوا حياتنا خلاف الآخرين..

من رمقناهم بقلوبنا.. دون أن ندرك أن القلب يرى مرة واحدة كل عمر..

من كانوا وراء ارتعاد فرائسنا..

كلهم.. كان أنت..

بذكاء الحب ملأت قلبي.. وكأنك الحياة كلها..

بعناد الذاكرة لم أتذكر سواك.. سوى تلك السعادة التي ومضت من وقع لقائنا كشرارة..

شرارة كانت وراء احتراق كل أيامي من غيرك..

ولم تبق تلك النار إلا على ذكرى اللقاء كفزاعة وسط رماد كان ذات يوم أحلام

لا تنسِ.. قلت بأنك ستأتي "

راحت بنظر ناعس ساهب نحو الجدار الذي يقابلها تحاول تفكيك ماتشعب من أمور تراكمت في عقلها على غير هدى، وتسأل نفسها في ذهول " لم تحرمه فيرا من أي شيء.. كيف يفكر هذا الرجل.. طوال حياتي لم أر امرأة تحب رجلاً مثلها.. لماذا يبادلها بخلاف ذلك..!! هل قصرت في حقه يوماً..؟ آه

يا فيرا.. يبدو أن الشعور بالحب لا يولد بعدم تقصير المحب اتجاهنا.. وبالتالي هو لا يموت بتقصير من نحب مهما كان التقصير.. إحساس ظالم.. أعمى.. بل مخجل " وفتح الباب فجأة فإذا به آركاد فتفاجأ وطفق غضبه:

- ما الذي تفعلينه هناك؟

ارتعدت حتى شل تفكيرها وقفزت من الصندوق وهي تقول بارتباك:

- لا شيء.. كنت أنظف القوارير من الغبار..

لوح بسبابته وأمرها مزمجراً:

- أرجعي القوارير إلى مكانها ولادخل لك بها.. ألم أنهك عن الاقتراب عن هذا الصندوق.. أتتحديني..؟

طفق غضبها هي أيضاً وجحظت عيناها وسط شعرها المتناثر الشائك:

- وأنت.. ألم يؤنبك ضميرك على سرقة ما بداخلها.. ألم يؤنبك ضميرك على استغلالك لثقة الملك.. ألم تخجل مـن تعليمك السرقة والخيانة لابنك الوحيد..؟

اتجه نحوها بخطى سريعة وافتك منها الرساله بقوة ومررها داخل القارورة على عجل، ثم رماها في الصندوق فأصدرت رنيناً حاداً وكادت أن تتحطم بارتطامها بباقي القوارير وقال لها وقد فقد أعصابه:

- إن تكررت فعلتك سأرميك في الخارج.

– هذا فقط ما تجيد فعله – ورمته بنظرة ساخطة وأضافت – اذهب إلى باتوس واعترف له بما فعلت ولا تخف إنه أفضل منك بكثير..

رفع كفه قائلاً:

– لا شأن لك بذلك.

عادت إلى السرير وهي تتمتم واضطجعت متجاهلة غضبه فيما أردف كما لو أنه يخاطب نفسه:

– رجل مجنون.. يزهق أمواله هكذا.. هل أتبع جنونه وأصبح مثله لأترك النقود للأسماك..!

– لن تسامحك الآلهة.

سكت برهة من الزمن ثم قال بنبرة جدية واثقة:

– ستلتمس لي العذر.. أنا لم أخطئ في حق أحد.. ولم أسلب أحداً..ثم إن اناتوليوس يعلم بما فعلت.. وهو من أمرني بتخبئة الرسائل في مكان آمن وأن ولا أفعل بها شيئاً حتى ينظر في أمرها.

– ولماذا..؟

– لأنه كان يخشى أن يعثر عليها أحد البحارة.. فهو لايريد أن يصبح الملك مثاراً لسخرية الجميع بنزوته الطائشة.

نهضت وتكأت على ساعدها وسألت باهتمام:

- وابنك.. كيف فهم ذلك؟

- لقد أقنعته بأنني قد أعدت النقود إلى ولي العهد أركسيلاوس.

- وهل انطلت عليه هذه الكذبة البائسة.. أم أنه غبي لدرجة أنه لم يلاحظ التغير الذي يطرأ في البيت في كل هبوب لرياح الجنوب.

جلس على طرف السرير وضم يديه ببعضهما بقوة ثم قال:

- سيكبر.. وسيعلمه الفقر كيف يلتمس العذر لأبيه.

رمت رأسها على الوسادة العابسة وقالت بحسرة:

- أنت كما أنت لم تتغير..! ستظل فقيراً..! وإن ملكت جبلاً من الذهب.

فرد عليها فوراً:

- ما دمت معي.. ومادمت حية فلا مناص منه.. ومن غيرك يجذب البؤس إلى البيت..

أنكبي في النوم.

أغمت عيناها وقالت بحزن شديد:

- أجل سأنام.. لأنه الصفة الوحيدة الجميلة التي أشترك فيها مع النساء الأخريات واستمتع بها كما يستمتعن بها.

جحظت عيناه واحمرتا، فنهض وخرج من الغرفة وصفق الباب وراءه بقوة حتى كاد أن يخلعه، أما هي فضمت الغطاء على وجهها غاضبه وقالت " معدم.."

(٦)

- أبي.. أبي.. استيقظ..!

فتح باتوس عينيه بفزع ونهض محاولاً كبح النور المندفع إليهن بظاهر كفه، وحينما اعتادت عيناه على وهج النهار رأى ابنه اركسيلاوس واقفاً أمامه.

صاح بصوت متحجرج تنم نبرته على الانشغال:

- ما بك.. ما الذي حدث؟

تبسم اركسيلاوس وأجابه ببرود:

- لا شيء يا أبي.

لم يهنأ باله وكرر بنبرة أعلى:

- قل ياولد ما الذي حدث..؟

ضحك اركسيلاوس ضحكة أذاعت الإطمئنان في فؤاد باتوس ثم قال:

- قلت لك لا شيء.. لقد أيقظتك لتجهز نفسك للذهاب معي.. لقد انتهينا من تجهيز ميناء أبولونيا..

زفر مخاوفه كإعصار وهو زائغ البصر في فراغ الغرفة. وبعد برهة من الزمن قال:

- هل أتممتم العمل بنجاح..؟

- أجل.. ولكن ليس بعد.. لقد أيقظتك كي نتشرف بحضورك وتشاهد أول سفينة تمخر عباب البحر.

التفت إليه وقال متعذراً:

- وهل يجب أن أذهب معكم؟

- بالطبع يا أبي - وفرد كلتا يديه قائلاً - إنها فرحة الإنجاز ولا تكتمل إلا بحضورك. عدل جلسته وهو يربت بكفه على السرير ثم قال " اجلس " جلس اركسيلاوس بجانبه. واسترسل:

- حضوري لا يقدم شيئاً ولا يؤخره وصحتي لم تعد بيدي. فقاطعه ابنه:

- ألم تكن بالأمس على الشاطيء؟

- أجل.. وذهابي البارحة هو من فضح شدة ضعفي.. اذهبوا.. فقوريني لكم الآن.

ابتسم قائلاً:

- صحتك جيدة.. فلولا الشيب.. كل من يراك يظن بأنك لاتزال شاباً.

ضحك ضحكة خاطفة وقال:

– لا أحد لايزال شاباً.. وحدها المدن هي التي بوسعنا أن نحافظ على شبابها.. أتعرف كيف..؟

– كلا..؟

– لأننا زمنها.. الرجال هم زمن المدن.. ومتى ما انتهى زمنهم انتهى زمن مدنهم.. لقد انتهى زمني وأخشى أن ينتهي زمن قوريني – راح يفكر تحت جنح الهدوء وبعد ذلك استطرد – المدن تشيخ وتموت مثلنا وقد تظل شابة للأبد.. أقول لك ذلك كي تستمر على نهجي وتضفي مجهودك لتهب قوريني عمراً آخر يبدأ بك.. يجب تصبر على ذلك.. فنحن لا نستعمل عقولنا بقدر ما نملك من أفكار بل بقدر ما نملك من صبر.. والصبر الحقيقي يأتي بعد نفاذ صبرنا.

هز اركسيلاوس رأسه وقد انقبض قلبه من الشعور بالمسؤولية الذي باغته بينما كان يقول الملك:

– يمتلك الدجاج أجنحة كأجنحة الصقور لكنه لا يفكر بالطيران إلا حين يشعر بالخوف.. أعمل عقلك في الرخاء على استدراك الشدائد قبل حلولها.. ففي الشدة لا يضطرب الرجال بل يتصرفون بعفوية مطلقة كتلك التي يتصرف بها الآخرين في الرخاء – سكت قليلاً ثم أضاف – تدرك جيداً أن الوطن بالنسبة لسكان المدينة اليوم لا يعدو كونه تراب مغبر يدهس بالأقدام وترمى فيه الفضلات دون أي اهتمام.. يبدون لك اليوم مجرد تائهين يبحثون دون كلل أو ملل عن مصالحهم ولا يبدوا على سلوكهم الانتماء لكن في لحظة واحدة

يسطع التراب ويصبح أعز من الذهب ويغلوا ليصبح أغلى من الولد بمجرد أن يرمقه العدو.. فالأوطان من غير أعداء لا أهمية لها.. إن الوطن هو البصر.. فنحن سرعان ما نمل النظر في وطن ليس وطننا ونسأمه ونسأم العيش فيه ونصاب بضجر مستديم.. لكننا لا نمل من النظر في وطننا.. الوطن هو حواسنا التي نمت في بيئته والتي سرعان ما نفقدها بمجرد الابتعاد عنه.. الوطن يعني تجربتك في الحياة. ثم راح بنظره إلى النافذة وأردف بصوت أكثر بهجة:

- المطر غزير في الخارج.. يمكنكم تأجيل ذلك..

- الأمر لا يحتمل التأجيل.. إلا إذا كنت تنوي ذلك..

- كلا.. افعل ما بدا لك.. وأين أستاسيوس؟

فأجابه ساخراً:

- أعتقد أنه نائم.

- ألا تريد اصطحابه معكم؟

فقال اركسيلاوس بنبرة من لا حيلة له:

- ليته يذهب.. لكنك تعرفه جيداً إنه يستبدل الأدنى بالذي هو أفضل دائماً.

- سيأتي اليوم الذي يفهم فيه الحياة جيداً.. وأرجو أن يكون ذلك اليوم قريباً.. ثمة عوائق كثيره يجب أن يتخلص منها كي ينتبه لنفسه.. فكلما نفقد

خلقاً جميلاً نزداد غروراً.. وكلما صدقنا أنفسنا.. أزددنا كذباً على الآخرين.. أتعلم لماذا أعامله بهذا الجفاء..؟

- تقصد تجاهلك له؟

- أجل.. لأنه جاهل.. والجاهل وصف لا يطلق على الذي لا يفكر أبداً.. بل يطلق على الذي يفكر أكثر من اللازم.. والجاهل أيضاً ليس الذي يملك قدرة محدودة في الفهم.. بل هو الذي يتعدى تلك القدرة.. لقد تجاهل أخوك العرف والأدب ولم يحسن بعد التحدث بصدق.. ألا يزال يعاقر الخمر طوال الوقت.. ويجالس النساء دائماً.. ويكذب متى ما تكلم.. ويتعالى على الناس أينما قابلهم..؟

فأجابه بخجل وتردد:

- أجل.. لكنه ليس كذي قبل.

- إن ترك الكذب فسيتخلى بنفسه عن كل الرذائل الأخرى.. لأن الصدق هو قمة النزاهة ورأس الأخلاق ومن تحلى به تحلى بالفضيلة.. إن حبر اللسان هو الصدق إذا كذب فلن يترك على الزمن شيء يقرأه من سيأتون من بعده. صمت لبرهة ثم تنهد وأوصل كلامه:

- إن الدنيا لا تطيق أن ينعم أحدنا بخصال الملائكة.. ولهذا تراها تجد وتجتهد على نحو حثيث للإيقاع بنا أرضاً كي نتلطخ بقذارتها.. وأشد ما يقض مضجع الملطخ بالقذارة هو رؤية من يتلألأ عفة ويعبق نجابة.. وأخوك قد تغلغلت فيه القذارة واستفحلت فيه.

– ألم تقل ذات يوم.. أن الغصن المعوج يظهر منه الظل مستقيماً في بعض الأماكن..!

– بالطبع.. ولا زلت أقول ذلك.. لأنه لايوجد أناس سيئون تماماً ولا يوجد أيضاً أناس جيدون دائماً.. ونحن لانعرف ما الذي بجعبة القدر.. فقد يحدث أن يقلب كل شيء رأس على عقب وعلينا ألانيأس من أحد وفي ذات الوقت لا نطمئن لأحد.. إن الدنيا أطول عمراً من الشر والخير أطول عمراً من الدنيا فحري بنا الحرص على فعل الخير.. لا المال.. ولا الملك.. السيرة الحسنة لاغير.. هي أروع شيء تتركه للحياة من بعدك.. كي ترثك.. لأنها ليست أمتياز لك فقط.. بل هي امتياز لغيرك أيضاً.. امتياز لأبنائك وشعبك.. وسيرتك تحدد مكانة شعبك.. إن كانت حسنة فإنك ستكون دافعاً لفخرهم واعتزازهم وستكون الوقود الذي يجعل حبهم لوطنهم دائم التوهج.. وإن كانت سيئة فسيلحق بهم ذلك السوء وستكون مصدراً لإحساسهم بالعار.. وستثني دون أن تدري رغبتهم في حمايتك.. وكل هذا يستوجب الصبر الحقيقي الذي يبدأ عند نفاد صبرك... كدس فضائلك في أفئدتهم ولا تنتظر من ألسنتهم الإطراء.

قام أركسيلاوس سعيداً متفائلاً تحدو نبضات قلبه همة منقطعة النظير، التفت إلى النافذة بعد أن أحس بالهدوء وهتف قائلاً:

– لقد توقف المطر وهاهي الشمس قد أشرقت من جديد.

– اذهبو إذاً.. رافقتكم السلامة.

وقام يتوكأ على السرير، يحاول أن يضع جسده في صورة لائقة وبدأ يسير مترنحاً متثاقلاً في قرع خطواته على الأرض وفكر في نفسه " من لنا في هذه الدنيا من بعدنا سوى أسمائنا حملناها ونحن أحياء وستحملنا بعدها ونحن أموات.. توبخ إن أسأنا في حياتنا وتبجل إن أحسنا فيها.. " جلس على الأريكه فجاءته دورا تهرول ويتبعها الخدم يحملون أطباق الإفطار وقدر مليء بالمياه الدافئة للإغتسال.

***

في غضون ذلك دخل استاسيوس وعصابته يتسكعون في الساحة العامة لمدينة قوريني، كانوا يرمقون الناس من فوق خيولهم بازدراء، وبالرغم من صدور مرسوم ملكي يمنع دخول الخيول والعربات إلا أن السلطة المخولة بتنفيذ القرار كانت واقفة متفرجة لا تلوي على شيء والناس يرمقونها بنظرات الاستحقار على عجزهم لاتخاذ أيما اجراء.

جاسوا خلال الممر الرئيسي الواسع للسوق يحدقون في البضاعة بأطراف أعينهم فيما كان التجار منكسي الرؤوس وهامدون مخافة أن يطالهم شرهم، كانوا يتجاذبون أطراف الحديث وتصدر في بعض الأحيان قهقهات متعجرفة عالية كما لو أنهم في غابة خالية إلا منهم.

كان السوق يعبق بروائح البخور والعطور والفواكه والتراب المبلل ويعج بصياح الباعة وجلبة خفق خطى المتسوقين، وكان رأس آستياسيوس وسط ذلك الزحام يترنح يمنة ويسرة مختالاً وفخوراً ومعجباً بنفسه أيما اعجاب رغم

قصر قامته وبدانته المشوهة وشعره المتجعد وأنفه الأفطس وعيناه الواسعتان المتباعدتان عن بعضهما وحاجباه اللتان لا تكاد تراهما من ندرة الشعر، كان كل من يقابله عدا أصدقاءه الذين كانوا على شاكلته يشعر بالضيق والاختناق لانعدام لباقته وظله الثقيل، حتى أن اهتماماته تافهة وسطحية وشهوانية وله ضحكة بشعة ورائحة كريهة جراء ملازمته لشرب الخمور، كان لا ينطق إلا بالكذب فيسمعه أصدقاؤه يختلق ببراعة البطولات والمجابهات والمعجزات ورغم علمهم بكذبه وأوهامه إلا أنهم كانوا يندهشون من كلامه ويتظاهرون باعجابهم ويرمقونه بنظرات الفخر كما لو أنه كان صادقاً ولحماقته كان نفاقهم ينطلي عليه فيسارع لجلب وتوفير كل ما يحلوا لهم وما يريدونه من امتيازات. بيد أن مكرهم يستبد في بعض اللحظات الحارة فينادونه بملك قوريني فيقشر بدنه الآسن متفاعلاً مع الأمر وينتابه الاعتزاز في حين أنه في أعين أصدقائه لا يعدو كونه عبد غبي مطيع.

وقعت عيناه على فتاة كانت ذات جمال فريد جداً كانت تتلألأ وسط الجموع بفستان بنفسجي غامق كللها بالروعة والسحر، كانت هيفاء فارعة يتموج شعرها البني البراق ككتلة واحدة وسط قاذورات السوق، رآها تلاطف أحد الباعة بابتسامة ناعمة وهي ترفع فستان أحمر قاتم وتتفحصه باهتمام، فيما كان هو متصلب مكانه زائغ البصر ومشدوهاً منذ رؤيتها وقد اجتازه أصدقاؤه وأخذوا يبتعدون عنه وسط الزحام دون أن ينتبهوا له وهو مثبور كتمثال بوذا.

وبعد لحظات صاح أحد أصدقائه يخاطب الآخرين:

- انظرو لهذا المغفل..!!

والتفتوا إليه فقال آخر والغيظ يسيل من كلماته:

- ياله من محظوظ أنه يحدق في تلك الفتاة الجميلة. ثم صاح له بصوت عالٍ ولما انتبه لهم قدم نحوهم وهو يهتف بذهول:

- أرأيتم تلك الفتاة.. هذه هي زوجتي - وبكل ثقة ردّد - نعم هي زوجتي.. التي لطالما كنت أبحث عنها.. لقد وجدتها.. وجدتها... وجدت أميرة قوريني.

واتجه نحوها مندفعاً تاركاً أصدقاءه يتبادلون نظرات السخرية فضرب أحدهم كفه في جبينه فانفجروا ضاحكين وقال الآخر مقهقهاً:

- انظروا ماذا سيفعل.. إنه عرض نادر جداً.

اقترب منها واعترض طريقها وهو على صهوة حصانه فحدجته بنظرة تفيض اشمئزازاً وقد تعكر صفو جمالها فهمست لصديقتها " هيا من هنا "

نزل عن جواده بقفزة مخجلة وشرع يخطو مسرعاً حتى اعترض طريقها مجدداً فحدقت فيه بركني عينيها باستحقار وقالت بحنق:

- كنت أكثر هيبة.. وأنت على صهوة حصانك..!

تبسم وهو مقطب الجبين والثقة ترفع أنفه وتسمو به للأعلى فيما أضافت:

- ليتك لم تترجل.

لدى وقوفه أمامها كانت كانت تبدو أطول منه بكثير ولعله لم يكن يشعر بذلك باديء الأمر لكن نظرتها كشفت عن فداحة مظهره.

قال لها بغرور بعد أن قذف ضحكة خاطفة:

- الطول لم ينفع العبيد في شيء.

فردت بنبرة عنيفة:

- والملك لم يجعل الأقزام إلا مثاراً للسخرية والاستعطاف.

فقطع كلامها بلطمة على وجهها حين دهسته بكلامها، وضعت كفها على مكان الصفعة المحمر وحدقت فيه والشرر يتطاير من عينيها ثم تنهدت بعمق وكظمت غيظها وانطلقت تمشي مسرعة وتتبعها صديقتها والناس يتفرجون بلا حـــراك ويترقبون الأحداث بفضول ورهبة.

شقت الجمع واتجهت إلى خارج الساحة تاركةً قطرات دموعها على أرض السوق تتبخر على مهل.

ولما تلاشى غضبه وجد نفسه محاط بأعين ساخطة فصرخ بملء حنجرته وقد ظهر وجهه أكثر قبحاً من ذي قبل:

- إلام تنظروا.

استدار الحاضرون وكأنهم ليسوا هم المعنيون بذلك وانتشروا بهدوء خشية إثارة انفعاله مجدداً، وركب حصانه متململاً وهو يحدق في الأرجاء

يبحث عن أصدقائه الذين كانوا مختبئين وراء بائع للملابس ويضحكون بروح شامته على خيبته وسوء تصرفه. وعندما لم يراهم ظن بأنهم قد ذهبوا فزفر ارتياحه وقال في نفسه:

" هذا من حسن حظي " وانطلق خارج السوق كي يلحق بها ودون جدوى لم يجد لها أثرا كالذي تركته في قلبه والذي أخذ يزداد عمقاً كلما ابتعدت واختفت.

***

في ظهيرة ذلك اليوم جلس باتوس على كرسي مطل من الشرفة الملكية على السهل الممتد الذي كانت تتصاعد منه أدخنة النيران المشتعلة بالحطب المبلل بين الأشجار التي تترامى فيها الحقول والبساتين على مد النظر كانت تتسامى ببطء نحو السماء وكأنها أعمدة للسحاب الأبيض السابح بهدوء. راح يتأمل الرعاة والفلاحين المنتشرين في حقولهم وبساتينهم مستغلين دقائق توقف المطر الذي إن توقف فمن أجل أن يشرع من جديد في إنزال مؤنه.

كان الجو بارداً تنزلق النسائم عبر سلسلة الهضاب المقابلة لذلك السهل مثقلة بزمهرير البحر فتنحني الاشجار والنباتات لدى مرورها مصدرةً حفيفاً ووشوشة وديعة كانت تبعث على الاسترخاء وتداعب خصلات شعره البراقة وتنشيء موجات عابرة على وبر معطفه البني القاتم.

كان أبناء أركسيلاوس و فرونيما يلعبون بجانبه بينما هو سابح بخياله يخمن ما يدور في أبولونيا من غيره وكيف كان وقع حضوره لو أنه قد حضر،

واحتشد الحزن في قلبه وبدأ يتصاعد حتى استبد به وبلغ عيناه العابستان فاغرورقتا بالدموع البراقة بالأسى والحنين، أغمض عيناه بقوة فرمى دموعه خارجاً وكأنه يتهرب منهن أو أنه كان يخشى الاعتراف بهن فلم يكن على دراية بأن دموعه جزء منه وحصيلة تمخض بها قلوبه كانت في رحمه ذات يوم مواقف استثنائية أسعده منها ما أسعده وأحزنه منها ما أحزنه.

مسح دموعه بطرف معطفه وأعاد تنظيم أفكاره من جديد فيما تنهد بعمق زافراً أحزانه فهبط عليه الرضا لدى مراقبته لأحفاده وهم يلعبون بعفوية مطلقة كانت نفوسهم تنعم بالبراءة والهدوء، وكان يشاهد من خلالهم مستقبلهم المشرق الذي لم يشعرو بوجوده بعد وخيبات وخسارات ومفاجآت لم يحسبوا لها مهما انتبهوا لذلك، فمهما أسهب في تحذيرهم ونصحهم لن يتعلموا إلا من أنفسهم ولن يخافوا النار حتى تلفحهم، هكذا نحن، كل ما نرغب فيه ننفذه مادام ضد مصلحتنا الشخصية أما ما ينفعها فمستحيل وكأن أعمارنا قد أهديت إلينا كي نزهقها في أقرب وقت ممكن وبأي وسيلة كانت.

في تلك اللحظات الحميمة بدأت السماء بالتلبد شيئاً فشيئاً مبشرة الأشجار العجائز والمروج المديدة الشغوفة بتلك القطرات التي ستطهرها من دنس الجفاف العقيم الذي ما يلبث إن ينشب أظافره في قورينى حتى ينزل عليه وابل منها. التفت باتوس الصغير ابن أركسيلاوس وكان يبلغ من العمر عشر سنوات إلى السماء قائلاً لجده:

– إن السماء قادمة إلى قورينى لتقدم لها وجبتها المفضلة.. وبعد أن تشبع

من وجبتها.. لن يكون لها أي عذر كي لا تقدم لك الوجبات اللذيذة من محاصيلها.

ضحك باتوس من كلامه وقال:

– إن من ينجو ليصل إلى هذا العمر مثلي يابني يكبر لسانه على تذوق الطعام لذيذاً كان أم رديئاً.. فالكل سيّان.. ما تذوقته من هذه الحياة.. من مر وحلو.. هو ما أستطيع أن أصف لك مذاقه بدقة.. فلا طعم للذيذ مادمت غير سعيد.. وكل طعم رديء لذيذ مادمت سعيداً.. أما لساني فقد كبر على تذوق الأشياء.

تأمله الطفل وقال بنبرة بريئة:

– أتريد أن تعود طفلاً يا جدي؟

قهقه باتوس وقال وهو في غاية السرور:

– كلنا يوجد في داخله ذلك الطفل اللامبالي والمستمتع.. أذكر أنه حضر إلي مرات عديدة في شبابي.. فملأ تلك الأيام بهجة ومرح.. لكنه اكتفى في مشيبي بالنظر إلي من بعيد فقط... فإلى الآن لا زلت أناديه تارة.. وأمجده تارة.. وأفاخر به تارة أخرى... وما ذلك إلا لأتحايل عليه من أجل أن يعود إلي كما كان من قبل... ولكنه لم يعيرني أي اهتمام... فأنا لا زلت أتغافل عن أنني لم أعد ذلك الإنسان الذي كنت... وأن ذلك الطفل النقي لا يستطيع الحضور إلى جسم مهترئ قد نخره الزمان بالتجاعيد في جسده ونخرته الدنيا بالتجاعيد في عقله.

اقترب الطفل ووقف أمامه وقال بلهفة:

- احكي لي قصة.

- أجل.. لقد اشتقت إلى قصصك يا أبي. قالت فرونيما ذلك حين وقفت وراءه ووضعت يديها على كتفيه، والتي كان يحبها حباً استثنائيا لأنها كانت تحمل اسم أمه وصورتها. تفتح قلبه وانتشى بالبهجة فراق له ذلك وبدأ يروي:

- في أحد الأسواق كان هناك حرفي يصنع السعادة.. يجاوره حرفي يبيع الشقاء.. ويقابلهم حرفي يبيع الصبر. كان بائع السعادة يأتي كعادته لبائع الصبر ويشتري منه الصبر.. وذات يوم.. سأل صانع الصبر صانع السعادة: مالي أرى الناس تشتري الشقاء بكثرة ولا أرى إلا القليل منهم يأتون إليك لكي يشتروا السعادة؟

فأجابه قائلاً: لأنهم لم يشتروا منك الصبر فأنت تبيعه بثمن باهض ثم هل رأيت أحداً من الناس اشترى منك الصبر ثم أتى ليشتري الشقاء؟ فقال له: كلا

قال: السعادة لا تباع إلابشراء الصبر... أي لكي نعيش حياة كريمة علينا أن نشتري الصبر عند الشقاء مهما كـــان ثمنه فستأتي السعادة بعدها لتعوضنا عن كل ما خسرناه.. ما رأيكم في هذه القصة.. إنها أقصر القصص وأطولها معناً.

هتفت فرونيما وقد بدت ملامح الجدية عليها:

- إنها قصة جميلة جداً.. لكن لدي سؤالين سأطرحهما عليك ليكتمل جمال هذه القصة عندي: الأول عندما لا يكون ثمن الصبر بمقدورنا هل نبقى أشقياء طوال حياتنا؟ والثاني.. هل تعوضنا السعادة عن كل ما خسرناه حتى وإن كان ما خسرناه إنساناً نحبه ونقدره قد واراه الثرى؟

راح بناظريه المستبشرين نحوها:

- لا يوجد إنسان يصاب بشقاء أكبر من حجم الصبر الذي يمتلكه.. ومن لا يستطيع الصبر.. هو في الحقيقة ضعيف إلى درجة أنه لا يستطيع أن يعيش سعيداً.. أما سؤالك الثاني عن تعويض السعادة لنا... فليس بإرجاع من واراهم الثرى إلى الحياة وإنما بالرضا... والتمعن جيداً في شطحات الزمن.. واستيعاب الحياة كما هي وليس كما نريد.. والنسيان الجميل الذي لا يبقي لنا من ذكراهم سوى صورتهم الخافتة في ذاكرتنا.. تتجلى فيها الابتسامة الصادقة وتنبعث منها المحبة الحقيقية... والتي نستشف منها أن ندير وجوهنا إلى الحياة... إلى شروق الشمس البهي... فلا يزال النهار في بداياته... ولا يزال حـــافلا بالمسرات... مفعماً بالبهجة... غنياً بالمكافأت.

راحت تفكر في كلامه ثم عادت تسأل:

- وإن أصرت ذاكرتنا على قضّ مضاجعنا بهم.؟

فسكت وخاطب نفسه بضجر " ماذا أقول لها.. إن كان قلبي لم يشف بعد من تلك التقرحات التي كانت وراءها ذاكرتي " أبتسم وأجابها وكأنه يخاطب نفسه:

– سينتصر النسيان عاجلاً أو آجلاً.. وسترضخ الذاكرة ذات يوم تحته.. انظري هناك. رفعت عينيها إلى الشمال حيث البحر فإذا بالضباب آخذ بالتكاتف للزحف نحو قورينى فهتف باتوس لأحفاده " هيا ادخلو إنها ستمطر "

دخل أحفاده يتتابعون أمامه فيما احتضن الضباب قورينى وضمها بين أحضانه القارسة وعاثت العتمة بالأرجاء. دخل باتوس إلى غرفته ويتبعه حفيده باتوس ووقف عند النافذة وراح يبحث عن صديقه الراعي بين الضباب ليطمئن عليه، في غضون ذلك ودون واعز شرعت الثلوج في معزوفتها الموسمية برقصات البرد الذي ينسج بإتقان وشاح يدعوا للدهشة تظل قورينى ترتديه لأيام.

جعل باتوس يرتشف ذرات السعادة التي كانت تتساقط مع ذرات البرد فيما كان حفيده يراقب عن كثب ذلك المنظر البهي البارد الباعث على الدفء الجليل ويراقب على نحو حثيث نشوة جده بهذا اللقاء وردة فعله لهذا العرض الأخاذ.

انتابت الجد رغبة شديدة بالإفصاح عن بهجته فراح يفكّر في نفسه عن سر السعادة، كان يراها كفتاتات صغيرة جداً متبعثرة ومتناثرة على امتداد حياته رأى بعضها قبل أن يصل إليها فمنحته الهمة والحيوية ليكافح حتى وصل إليها، ولم يرى بعضها حتى وصل إليها لأنه لم يكن يتوقع وجودها حتى في خياله الجامح وهي دائماً ما تحمل طابعاً خاصاً يختلف عن كل سعادة لأنها سعادة كانت تحمل شرف المصادفة، وللأسف رأى أغلبها بعد أن مر عليها دون أن يشعر بها فأمسى يلتفت إليها بحسرة وهو سائر في الزمن وألهته عن كل سعادة

أخرى أتت بعدها وكلما أبعده الزمان عنها كلما التصقت وتشبثت أكثر في ذاكرته فالزمان كله مهما طال كان ما يزال صغيرا أمام ذاكرته لأن الزمان لم يستطيع أن ينسيه سعادة أحس بها فما بالك بسعادة غفل عنها لا زال مصراً حتى هذه اللحظة على أن يحس بها مع أنها قد أمست مستحيلة.

كان يدرك بأنه واقع تحت قوة الزمن، وكان يدرك أيضاً أن الزمن أيما كان جبروته لن ينجح في اختراق قلبه ليعبث به فلكل قلب زمنه الخاص به، فهل استطاع الزمان أن ينسيه أناساً ماتوا كان يحبهم ويجلهم..؟ هل استطاع أن ينسيه ظلماً هتك حرمته وعكّر صفو حياته وشتّت حواسه طويلاً وأجفل الأمان من قلبه دون رجعة..؟ هل استطاع الزمان أن ينسيه خداع من كان يتكئ عليهم ومن كان يظن طوال عمره أنهم مصدر الدفء والظل إليه في آن واحد..؟ هل استطاع أن ينسيه أخطاء فظيعة كان شغوفاً بالقيام بها اكتشف بعدها أنها أخطاء لاتغتفر أبدا..؟ كلا.. لم ولن يستطيع الزمان فالخيار ليس بيده بل بيد قلبه وزمنه الخاص به.

أدار ظهره إلـى النافذة وهـو يخاطب نفسه " أعتقد بأن زمن قلبي قد قارب على الانتهاء.." واتجه إلى الأريكة كي يرتاح حين أرهقه وقوفه الطويل، كان غاضباً ومشوشاً جراء بحثه اليائس عن السعادة واكتفى بصمته واستعاظ بكل ما مر عن كل ماسيقابله في الأيام القادمة زاعماً أن الماضي هو الأجمل دائماً دون أن يدرك أن المستقبل هو من كان وراء ذلك.

(٧)

مرّت الأيام سريعاً تحت الأمطار حتى كادت أن تتعثر ببعضها من فرط سرعتها كانت خالية من الأحداث مما جعلها بلاوزن تندلق تباعاً وتنساب مندفعة تتدفق عبر جداول الزمن ومنحدراته صامتة.. بلارائحة.. بلاطعم.. بلالون.. تبعث على الكآبة وتتسرب من قبضة الذاكرة إلى النسيان.

انقضى الشتاء تاركاً وراءه قطرات من مطر كانت تتساقط ببطء من على الأجراف وزوايا أسقف البيوت ولا شيء سوى الهدوء ذاك الترقب الدائم في أول أيام الربيع لانتظار تفتح الأزهار وكأنها لحظات تجديد العهد مع الطبيعة أو لحظات تتويج للحياة من جديد أو ربما لحظات التقاط أنفاس الزمن.

مر الشتاء وأماط الربيع اللثام عن وجه الارض الحقيقي وانجلت الأحزان وراحت بعيداً مــع السحاب وانزاحت الهموم وتلاشت عبر شقوق النسيان المتشعبة فــي قلوبنا.

دفع عبير الياسمين نوافذ الشرفة متسللاً إلى غرفة باتوس وانتشى فراغها متنهداً تلك الرائحة وزافراً أغبرة الشتاء الغارقة في البؤس. من على زاوية تلك النافذة من الخارج شرع زوج من الحمام فــي بناء عشه وكانت تحدو رفرفة أجنحته البهجة بالحياة. كل شيء في الحياة شرع على نحو حثيث في شق خطواته الأولى وكأنه اليوم الأول له على هذه الأرض، فالشتاء كان للأحلام وقد انقضى موسم الانتظار أما الربيع فهو العمل والتحقيق ولامجال لخسارة يوم آخر الجميع في أمس الحاجة إليه بيد أننا لم نخلق لانتظار الأيام إنما

خلقنا لانتظار الموت والأيام تأتينا ونحن من نذهب بأرجلنا إلى الموت، فحياتنا نصفين نصف للموت ونصف لانتظاره، لذلك لم يكن باتوس على استعداد لكي يجازف بيوم واحد بعد هذا العمر لأجل يوم لم يسمع عنه سوى من أهواء نفسه فاختار الذهاب إلى أيامه التي كانت تنتظره في الخارج بفارغ الصبر غاضاً البصر عن وشوشة أحلامه لأيام ما عاد لها يوم لتحقيقها.

ذاعت روائح الأعشاب على متن الهواء الرطب ودوى خرير السواقي والقنوات في الأرجاء تلمع المياه في جريانها بأشعة الشمس وقد اتخذت من الشتاء برودته وعذوبة قطره لتشق الموسم الجديد وتمده بالحياة والنظارة، سرى صوت العصافير تدريجياً حتى اكتظت به المدينة كان يصدح صدى زقزقتها في المعابد والمسرح والأودية وعادت المواشي لمروجها ترتع مستقبل رعاتها، وبدأت زهور السلفيوم بالتفتح واحدة تلو الأخرى. أما سكان قوريني فقد انعكس عليهم الربيع بجلاء فالبهجة كانت تملأ الأطفال وتمدهم بالقوة، والسعادة كانت تغمر العجائز وتفضي فيهم الشعور بالأنس، والحيوية كانت تحدو شبانها وتفرغ فيهم حب الوطن، والنظارة تجلت على نسائها بالحسن والجاذبية والعطاء. هكذا كان الربيع في قوريني ملحمة للبهاء من فرط جمالها ظلت مشتعلة في القلوب ترددها على مرّ العام وكأن الربيع هو الحياة، قوريني في ذاك الزمن لم يكن ثمة شيء يشبهها كان يمر عليها الزمن وينحني لها احتراماً ولم يتجرأ قط على نيل شيء من جمالها فلم تشخ بل كانت تزداد شأوا في الحسن والبهاء، كل يوم كانت تشتاقها الشمس أكثر، وكان القمر متيماً بها، وكل مساء كانت النجوم تتجمهر وتتدافع كي تراها، كانت الفصول تتسابق للقائها وتتنافس على إرضائها الزهور وتتغنى

لها العصافير ويغدق عليها السحاب بالأمطار ويسترسل الشعراء منها وإليها القصائد الرائعة.

في ساحات المدينة ومنذ الصباح هرع الأهالي وتحدوهم البهجة بالتجمع للاحتفال بالعيد القورينائي المقدس لأبوللو حامي المدينة وقد تجهزوا للمشاركة في الألعاب القورينائية والرقص وأداء الشعائر الدينية، كان الأهالي يتوافدون كمجموعات، الأصدقاء والعائلات الكل يمشي كان متأبطاً ذراع من يحب وقد لبسوا ابتسامة العيد، كانت أنغام الموسيقى ودف الطبول يتعالى وسط الضحكات، مرتدين أبهى ما عندهم من الملابس العبقة بالعطور الزكية، وهناك من كانوا يأتون بالأضاحي في مواكب ويشقون الحشود ليقدموها لأبوللو.

بدأ المؤسسين أصدقاء باتوس بالتوافد واحداً تلو الأخر يجلسون أمام مرأى الجميع وتصفيقهم الحار على كراسي فاخرة أعلى الساحة كتقدير على انجازهم الخالد حيث كانت أغلب الكراسي شاغرة لوفاة أصحابها. وحالما جلسوا كلهم صعدت إليهم فتاة جميلة كانت تحمل بين راحتيها أكواب من الذهب بها عصير بنكهة الزعتر وقدمت لهم ذلك بخجل ثم وقفت على الطرف في انتظار احتساءهم للعصير فيما صعدت فتاة أخرى بذات جمال الأولى وبنفس فستانها الأحمر الفاقع تحمل بين راحتيها زهور وجعلت تضع على كل كرسي شاغر زهرة كتعبيراً عن شكر الشعب لهم وعن احترام مكانتهم وكان الاهالي يصفقون بحرارة وحزن عميقين فيما أغرورقت أعين عائلاتهم فخراً وألماً على فقدانهم.

لم تكن قوريني في ذاك الزمن مدينة كبيرة ولم يفت بعد سكانها الألفين إلا أن سيرتها قد بلغت العالم أجمع في النظام والازدهار والتطور.

في غضون ذلك علت الصيحات فجأة وبدأ التصفيق بالهيمنة على الأرجاء بوتيرة متصاعدة والناس تحدق بلهفة باتجاه العربتين القادمتين، كانت الأولى تقل باتوس وزوجته فيرا وحفيده باتوس أما الثانية كانت تقل أركسيلاوس وزوجته. شقت العربتان الجموع وأصبح الأهالي يتقهقرون لإفساح الطريق وكان الملك وعائلته يتشاطرون معهم التحايا والابتسامات.

وقفت العربتان عند المنصة الملكية بالقرب من المؤسسين وسط تصفيق الجميع وصفيرهم فيما عادت العربتان ادراجهن، ولملم الملك عباءته وجلس يتأمل الحشود التي كانت ترمقه باعجاب. وسط تلك الحشود كان آستيا شاحب الوجه يبحث عن فتاة أحلامه الهاربة التي صفعت قلبه زاهداً في مجلسه بجانب أبيه، كانت مقلتاه لا تكفان عن الحركة يمنة ويسرة كما لو أنه يبحث عن الحياة. في تلك الأثناء الكئيبة تقدمت وسط جلبة الأهالي فتاتان عذراوان من أجمل فتيات قوريني في موكب مهيب كان متجه نحو معبد أبولو فهبط الهدوء فجأة ودخلت الفتاتان إلى المعبد يتبعهن أحد الكهنة ويحمل بين راحتيه لباس أبولو الجديد، تقدمن ونزعن ملابسه التي مرّ عليها عام وألبسنه لباس العام الجديد، والكل في الخارج يترقبون خروجهن بحماسة.

ما إن خرجتا بعد أن أكملتا مهمتهما حتى اهتزت قوريني وطارت إثرها العصافير بعيداً من الصيحات والزغاريد والتصفيق، واحد فقط لم يحرك ساكناً و لم يرمش له جفن مذ دخل الموكب، آستيا، فإحداهن كانت صاحبة الفستان البنفسجي الذي علق في ذاكرته، اختفى وسط الأهالي، اختفى حتى عن الواقع، وأصبح جامداً كتمثال رخامي. ولّما عاد موكبها، بعد أن صافحت

الملك والمؤسسين ، ومرّ بجانبه تقهقر خطوات وانكمش مذعوراً كي لا تراه، فلم يشعر يوماً بالخوف أكثر من ذلك اليوم ولم يشعر بأنه لا شيء سوى في ذلك الصباح وقد اكتشف لتوه أن أحب الأشياء إلى قلبه قد تكون هي أكثر الأشياء إخافة له، وظل على هذه الشاكلة حتى ابتعدت.

كان باتوس غارقاً في مشاهدة الفرحة وهي تغمر الجميع ثم راح بنظره إلى كرسي يليناوس الذي كانت تجلس عليه ذكراه باعتزاز وهي تحمل بيمينها الزهرة التي كانت تستنشق عبير مدينة لطالما أحبها، استطعم مرارة الذكرى وحاول أن يبتلعها قبل أن تبيح حزن قلبه للتجلي فقد خطر على باله ما هو أبعد من ذلك اليوم بكثير، رمق فيرا محاولاً الفرار من ذكرى صديقه فانتبهت له وراحت تتأمله وابتسامتها تنساب في الأرجاء، ابتسم ودون أن يشعر استطاع الهروب، وعادت الصيحات والتصفيقات وعادت أشعة الشمس تسطع على أوراق الشجر وشعر الفتيات من جديد وانتشت روحه بطعم العيد فتنفس الصعداء وذاب وسط سرور شعبه فأمست المدينة تعبق إحساس السعادة الذي لوّن قلوب الجميع. ولسوء حظ الملكة ساءت صحتها وانتابها المغص فجأة، ودون تنبيه، أصبحت تصارع الألم كي تحافظ على ملامحها البهيجة وهي تحدق باستجداء في دورا المشغولة مع صديقاتها.

بعد صراع دقائق انتبهت دورا، أومأت لها، ففهمت الأمر واستدعت آركاد على عجل، فجلب العربة وانطلقت دورا نحوها وسحبتها بلطف من يدها وتسللتا نحو العربة. وأخذت الملكة تخطوا محافظة على اناقتها وابتسامتها العريضة وكأنها في كامل صحتها حتى صعدت على متنها وعادت بها إلى القصر

ولحسن حظها لم ينتبه لها أحد فالكل في ذلك الصباح كان منهمكاً في إسعاد نفسه ومصراً على أن لا يفسد ذلك اليوم.

***

احلولك الظلام وهرعت الناس إلى بيوتها لقضاء ما تبقى من ساعات الاحتفال مع عائلاتهم وأمست الساحة خالية تماماً بعد أن خلى النور من السماء وتناثر على أطراف المدينة.

ذهب آستيا يجر قدميه إلى كاهنة الموحى كي يستطلع المستقبل لدى فرار حاضره عن سيطرته، دخل عليها فرآها منهمكة في لملمة حاجياتها للعودة إلى بيتها ثم راحت تنفخ المصابيح واحداً تلو الآخر على رف ممتد على طول البهو.

قال لها بلطف لم يُعهد عنه حينما شعرت بحركة ما والتفتت إليه مذعورة:

- عمت مساءً.

وقفت جامدة لا تلوي على شيء وعيناها تتقلبان بهلع بينه وبين الباب بعد أن تمكنت من التعرف عليه على الرغم من الضوء الخافت المتبقي من المصابيح التي كانت ما تزال مشتعله، وبصوت مرتعش وكلمات كانت تتطاير من الخوف ردّت:

- عمت مساءً أيها الأمير..!

فقال مستجدياً:

- هل تسدي لي معروفاً.؟

لم تأمن مكره، كانت على وشك الصراخ لطلب النجدة، إلا أنها تصنعت قائلة:

- بكل سرور.

نكّس رأسه وقال بيأس:

- إنه أمر مخجل بعض الشيء.

ولمّا أحست بحزنه وانكساره شجعته قائلة:

- قل.. لا تخجل.

كان واقفاً قرب الباب وكان غبش المصابيح يكشف ملامحه المرتعشة، اقتربت منه بحذر حين اطمأنت لأمره وأشفقت على حاله حتى وقفت أمامه وقد انعكس ضوء القمر الوالج من الباب وكشف ملامحها حيث كانت تبدو كساحرة ماكرة بلاروح.

- أنا. ثم زفر همومه العالقة في قلبه فيما ظلت هي على ترقبها الحثيث، فأردف:

- هل جاء أحدهم إليك قبل هذه اللحظة وقال بأنه يخاف من امرأة..؟

أجابت باستغراب وقد بدا الفضول يستبد على خوفها:

- كلا لم يحدث - ثم أضافت بصوت أعلى قليلاً - ولكنه يحدث..!

راح ينظر إليها بعينيه العابستين فاسترسلت:

- أنت لا تخافها - ومرت على وجهها ابتسامة مريبة خاطفة - أنت تحبها.

فهتف معترفاً بوجعه:

- إنها لم تغادر ذاكرتي مذ صفعتها على وجهها فالشك يراودني حيالها لعلها جنية.!

انفلتت منها ضحكة خاطفة كانت أشد ريبة من ابتسامتها. وأضاف قائلاً:

- أجل إنه شيء مضحك.

فقالت بشفقة وهي تتأمله:

- يبدو أنك تعشقها.. اذهب إليها. قاطعها بصوت عال دوى في البهو:

- كلا لن أذهب إليها.. لقد صفعتها على وجهها.. ثم.. ثم إني بت أخاف مقابلتها.. لقد رأيتها اليوم وهي تلبس أبولو فأصابني الشلل.. وانتابني الذعر.

- حسناً.. هل هي ذات الشعر البني أم ذات. فقاطعها مجدداً:

- أجل هي ذات الشعر البني.

أومأت برأسها وهي تقول:

- ليست جنية.. هي أشد من ذلك بكثير.

جحظت عيناه وسأل على الفور:

- ما هي إذاً..؟

- إنها حسناء.

فزفر خوفه وقال بنبرة محبطة:

- وما الفرق..؟

- حين تصبح المرأة حسناء.. وحين يقلّد حسنها بالدهاء.. فإن الدنيا ستستخدمها لمصلحتها.. ومصلحة الدنيا الأولى هي شقاؤنا.. هي هدمنا.. هي بعثرتنا.. هي تلاشينا.. للحسن يابني جبروت طاغٍ مستتر يذهب القلوب.

- سأصدقك القول.. أنا أعلم بأنني قد أحببتها.. ولكن كيف أهرب منها.. أو كيف أسحقها.. بت أكرهها بقدر حبي لها؟

أطلقت تنهيدة عميقة وقالت بنبرة حزينة:

- إن الحب يبدأ ولا نهاية له.. يبدأ فقط.. هو ليس إحساس عابر وحدث قد تطويه الأيام بل ذاكرة يستحيل انتزاعها.. وما الكره إلا محاولة فاشلة لانتزاعه - ثم أضافت بابتسامة صادقة - قوريني لن تبخل على أميرها بإحدى جميلاتها.. انظر من حولك.. ستحب غيرها يوماً ما.. فالحب ليس مجرد إحساس بل إحساس في محله.

انفعل من تلقاء نفسه وقال بمرارة:

– حين تفوه قلبي بحبها أول مرة ظننت بأنني سأتفوه به مرة أخرى مع غيرها كلما طاب لي ذلك لكنني تفاجأت بأنني أتفوه بها كلما حاولت أن أتفوه بحب غيرها.. إلى أين يمكنني الهروب منها.

ربتت على كتفه وقالت محذرة:

– ستؤذي غدك بهذه الذاكرة.. الهروب ليس بالمسافة التي تبعدك عنها بل بالفكرة التي تبعدها عنك.

استدار نحو الخارج قائلاً:

– لا أعرف ما الذي أريده.. تركها أم البقاء بجانبها – ثم استدار نحوها – أتعرفينها.. أتعرفين أين تسكن..؟

– كلا. نفت ذلك ليس لأنها لم تكن تعرفها بل كان خوفاً عليها من بطشه.

فرد يديه بحسرة:

– وما الحل..؟ أريد الحل..

أخذت تضرب ظهره بكفها وهي تسير بجانبه إلى الخارج:

– ارجع لبيتك الليلة.. وقبل أن تنام حدد قرارك إن كنت تريد أن تقترب منها فابحث عنها.. قوريني ليست بالكبيرة ولابد أن يدلك أحدهم

لبيتها.. وإن كنت تريد أن تبتعد عنها فأبحث عنها في قلبك ولابد أن يدلك عقلك إلى مكانها وحينها اقتلعها منه واقذفها بعيداً.

تركها واقفة وراءه وقد حفظ عن ظهر قلب كل ما قالته وبينما هو في طريقه إلى القصر أخذ على مهل يسترجع كلامها ففهم بعضه وفهم البعض الآخر منه بشكل آخر ولكن دون جدوى فلم يكن في الكلام الذي سمعه كلمة واحدة كانت تملك الشجاعة لوقف هذا الدفق الهادر لحبه.

***

وصل آستيا إلى القصر كان منهك الهمة وضامر الفؤاد كما لو أنه قد خاض حرباً ضروس، ارتاب حين رأى القصر خالياً من دبيب الخدم وصراخ الأطفال وجعل يتلفت بانشغال يمنة ويسرة في الممرات وبينما هو في طريقه إلى الباحة سمع خفق خطى أحدهم ولمّا ألتفت باتجاهه رأى آركاد قادم ممن أقصى الممر، سأله بصوته العالي المتهدج عن هذا الهدوء الخانق الجالب للريبة فأجابه وهو يسير نحوه بسرعة بأنهم في غرفة أبيه نظراً لوعكة صحية ألمت بالملكة، هاله الخطب وهرع مهرولاً إلى الغرفة.

دفع باب الغرفة فقابله أبوه جالساً على الأريكة وبجانبه أركسيلاوس وطفلته الصغيرة نائمة في حضنه، أخذ خطوة، والتفت عن يمينه ونبضات قلبه في تسارع فرأى أمه مضطجعة في سريرها وتحدق فيه بنظرات كانت تنم عن الاشتياق، كانت تتسم بالعافية بعد أن غادرها الألم فيما كانت ابنتها وزوجة أركسيلاوس ودورا متحلقات حولها والأطفال نائمون على طرف السرير.

- أفسدت عليك سهرتك..؟ قالت فيرا لابنها، وكأنها قد أقترفت ذنب.

أجال نظره في الحاضرين ورد قائلاً:

- لا عليك يا أماه.. ثم إني لم أكن مع أصدقائي.. كنت جالساً خارج القصر.

كان باتوس ينظر إليه بغضب، غير أنه فضل الصمت مراعات لحال زوجته.

تساءل أركسيلاوس باستغراب مخاطباً آستيا:

- لم لم تأت اليوم إلى الاحتفال؟

- لقد أتيت.. ولكني فضلت الجلوس مع أصدقائي.

فقال باتوس ساخراً وملامح الغضب ما تزال بادية عليه:

- أي تواضع هذا.. تفضل الجلوس مع اصدقائك.. ليتهم اصدقاء بالفعل - وبعد صمت عميق دفع الحضور إلى التوتر أضاف بحنق - من الحكمة أن نختار اليوم صديق واحد لكي يكون لنا غداً وفي أسوأ احتمال عدو واحد.

آثر استيا الصمت لدى احساسه بعظم غضب أبيه الغير مبرر من اصدقائه، فحاولت فرونيما قطع أحبال التوتر الآخذة في الالتفاف عليهم ونادت باتوس الصغير المستلقي بجانبها:

- هل نمت يا باتوس..؟

أجابها بكسل:

- كلا.. لم أنم بعد.

- ولماذا لم تنم بعد..؟

فنهض وهو يهتف:

- لن أنام حتى يحكي لي جدي حكاية.

وأضافت فرونيما بذات النبرة وهي تحدق في أبيها:

- كذلك أنا.. لن أنام يا أبي حتى تحكي لنا حكاية.

وكان الآخرون يرمقون الملك وينشدون ذات الطلب. راح يفكر فتذكر كلام يليناوس قبل عشرين عاماً " أن العادات السيئة في الآباء تصبح غرائز يورثوها لبعض أبنائهم لا يمكنهم التخلص منها بسهولة " وتساءل في نفسه وهو ينظر لآستيا " هل هذا وريث عاداتي السيئة "

ثم راح بناظريه إلى حفيده الرابض فوق السرير وقال وهو يجيل النظر في الحاضرين " ذات صباح.. خرجت سلحفاة من البحر إلى شاطئ رملي وأخذت تحفر.. وحين وصلت إلى العمق المنشود.. وضعت بيضها فيها ثم ردمت تلك الحفرة المليئة بالبيض بوتيرة سريعة.. وكان هناك نورس بالقرب منها لم تنتبه له يقف على جذع شجرة كان ملقى على الشاطئ.. سألها النورس وقد طفق

غضبه: لماذا تسرعين في ردم أولادك هكذا.. دون شفقة.. ودون أن تودعيهم.. ودون أن تحزني حتى على فراقهم.. أي الأمهات أنت..؟! فأجابته السلحفاة بعجلة وهي تدور عائدة إلى البحر: الوقت ليس في صالحي فأنا مازلت أبحث عن أمي."

حدق أركسيلاوس فوراً في شقيقه، أما البقية باتوا مشدوهين يترقبون نهاية القصة. فقال حفيده مبدياً عدم رضاه عن القصة " أكمل "

ضحك الملك قائلاً:

– لكن القصة انتهت. ثم التفت إلى أركسيلاوس، فصاح باتوس الصغير غاضباً:

– سلحفات تبحث عن أمها؟

راح باتوس إلى استيا وسأله في تجهم:

– هل القصة مجرد سلحفات تبحث عن امها كما قال باتوس؟

– كلا – وابتسم ابتسامه بليدة – هي قصة تربية. قال ذلك وكان لا يعرف إن كان قد حالفه الحظ في اختيار الجواب المناسب أم لا.

فتعمد باتوس آستيا قائلاً بصفة الجمع:

– أرجوا أن تكونوا لنا كما كنا لوالدينا. ثم ألتفت إلى حفيده وقال بوجه باسم:

– يروق لي التحدث مع الأطفال لأنهم أكثر عمقاً من غيرهم فهم لا يتكلمون حتى تتكون لديهم فكرة معينة في حين ترى الكبار على استعداد للكلام ساعات دون أدنى فكرة – ثم تابع – سيفقس أولادها كما فقست ذات يوم ونبشون الرمال حتى يخرجوا على السطح وسيتجهون إلى البحر بحثاً عن أمهم كما فعلت.. وسيفقس أولاد النورس بين أحضانه وسيعتني بهم كما اعتنى به والديه حتى ينبت ريشهم ويعلمهم الطيران كما علماه والديه.. وهكذا.

كان الأهم في تلك الغرفة وفي تلك الليلة هي فيرا، لقد كانت سعيدة جداً بذلك اللقاء الحميم الذي جمع أبناؤها وأحفادها وزوجها وخادمتها الوفية تحت سقف واحدة ملتفين حولها يمدونها بالدفء، ويحرسونها من الألم طوال الليل، حتى أشرقت الشمس.

استيقظت في الصباح الباكر وقد عاد إليها الكثير من نشاطها فرأتهم يغطون في نوم عميق دون أن يبرح أحد مكانه.

(٨)

في غياب الحيلة عن العقل تتفاقم الأيام وتتسع ويحتويها فراغ هائل حين يستشري فيها داء الانتظار فيجعل لحظاتها تتدفق بوتيرة بطيئة رتيبة تبعث على الكآبة وينتابنا حيال تلكؤها السأم والسخط فلا نعد ندري في أي مسلك نحن.

في إحدى أمسيات قوريني الربيعية وكما اعتاد استيا أن يقضيها لاهياً مع صحبه كان متكئاً على ساعده وعيناه حمراوان عابستان نتيجة لإفراطه في الشرب، يتتبع بمسامعه بضجر موسيقى بهيجة كانت تصدح في رأسه على خلاف مزاجه الذي دام ينفر تلك الألحان طوال السهرة. لم تكن حنجرته تقوى على الصراخ لإيقاف العزف فيما كان الجميع من حوله منتشين هائمين وفي غاية السرور.

كان يتنقل بمقلتيه الشاحبتين بين أصدقائه واحدا تلو الآخر وهم يمرحون في غنى عنه وعن كآبته، لم يكن يجرؤ على الشكوى لكثرة ما اشتكى لهم وإن حدث وامتلأ شجاعة لم يكن عقله يجرؤ على الإفصاح عما ينتابه بطريقة جديدة تلفت انتباههم ولا تبعث على الملل، فماذا يفعل وقد انتهى به المطاف بعد ذلك الصباح الذي رآها فيه إلى جثة بلا روح فلم يستقم له قوام بعد أن سلبته وجردته من كل شيء واستحوذت عليه بالكامل ولم تترك له سوى صورتها تحرس ذهنه الذي أخلته تماماً في غيابها وأمست تنعق بداخله كبوم كل غروب شمس.

عدل جلسته فانتبه له صديقه الذي كان جالساً بجانبه يسامر إحدى الفتيات، لم يكن يشعر بإحتراق آستيا فلادخان يتصاعد منه ولارائحة تنبعث عنه لتنذر باحتراقه، كان حريق في القلب فلاماء ولادواء لإخماده ووحده من أضرم النار بوسعه إخمادها وبنظرة واحدة.

مال نحو رأس آستيا وقال بازدراء ظاهر:

- مابك؟

- لا شيء. أجابه وهو يغمض عينيه بكسل حتى تظن بأنه لن يفتحهما، ثم يفتحهما حتى تظن بأنه لن يغمضهما مجدداً.

صفع صديقه جبهته فجأة وهتف:

- تذكرت.

بذات البرود رد:

- ماذا..؟

- أتذكر الفتاة التي قابلتها في السوق..؟

طار من مجلسه وصاح بلهفة:

- أجل.. صاحبة الفستان البنفسجي؟

- نعم.. لقد عرفت بيتها.

وقف على ركبتيه وقد عادت إليه حيويته من العدم وسأله بلهفة:

- أين؟

- إنها تسكن هنا في ضاحية المدينة من الجنوب.

وقف بنشاط وهو يقول:

- هيا إليها الآن.

- أجننت.. إنها نائمة الآن..!!

- قلت لك هيا.. دلني على مكانها.. وعد إن شئت.

فمسكه من ركبته وقال كما لو أنه يخاطف طفل عنيد:

- سنذهب في الغد.. أترى حالتنا.. لقد تمكن منا السكر والسهر.

شدّ صديقه من كتفه:

- هيا قم أريد أن أعرف البيت فقط.. وسنعود فوراً.

انتابت صديقه الماكر موجة عاتية من الندم حين تجلى الشر في عيني آستيا في حالة رفضه، نهض يتمتم بغضب والتفت إلى باقي الأصدقاء. وصاح لهم:

- سنعود.. لا أحد يترك مجلسه.

***

ما لبثا أن أصبحا على مشارف البيت فقد كان قريباً من ملهاهم. أشار صديقه بسبابته المرتخية باتجاه البيت:

- هذا هو بيتها.

رأى آستيا بيتاً صغيراً لم يكن يخلو من السحر والجاذبية والتميز، كانت الزهور تلفه من اتجاهاته الأربع ويقع وسط حقل من الأشجار والخضراوات المتراصفة على شكل صفوف، كانت نوافذه مستطيلة بشكل عمودي عددها ثمانية، يتوسطهن الباب وكان ثمة نور خافت ينبعث من النوافذ التي على اليمين. وراح بنظره يسار البيت ولا حظ تحت جنح الظلام إسطبل مرتب للخيول ووراءه مباشرة سياج من أغصان الشجر يبيت فيه قطيع من الأغنام، وعاد بنظره يتأمل باب البيت فرأى كلب أبيض ضخم مستلقياً تحت ضوء القمر وقد بدى عليه الكسل والشيخوخة.

همس صديقه:

- هيا.. لقد تأخرنا.

رد عليه بنبرة شيطانية:

- انتظر قليلاً - ثم أضاف - ترجل.

فسأله صديقه بارتياب:

- ماذا تريد أن تفعل يا رجل..؟!

- انزل.

ترجل آستيا وتبعه صديقه الخائف وأخـذ الأول يسير متسللاً نحو البيت فناداه الثاني هامساً:

- انتظر قليلاً.. إن رآك أحد هنا وفي هذا الوقت.. وبهذه الحالة سيبلغوا أباك بذلك.

أجابه ونظره متعلق بالباب:

- لا عليك.. سأطرق الباب.. وحين تفتح لي سأتظاهر بأنني أريد أي شيء..

- وما الذي جعلك تجزم بأنها ستفتح لك الباب..؟

- سترى.. انتظرني هنا وحسب.

وقف صديقه هناك وهو يلعن نفسه على فعلته فيما كان استيا يقترب رويداً رويدا من البيت. ولما أحسّ الكلب باقترابه وقف ينبح بصوته المبحوح وكلما اقترب استيا كان الكلب يزداد جنوناً بنباحه وينحنى إلى الأرض بانيابه البارزة وسط اللعاب.

قبل أن يصل إلى سياج البيت فتح أحدهم الباب ونهر الكلب فيما استمر استيا في المشي بخطى أوسع، كان الشاب الواقف أمام الباب يجيل النظر في الظلام ويتفحص ملامح الآتي.

فبادر استيا:

- عمت مساءاً.

- مرحباً. وأخذ خطوة نحوه، فبدت ملامح استيا حين قشع النور أستار الظلام وتبدد الغموض.

- لقد ضاع مني حصان كنت قد أبتعته صباح هذا اليوم وحين كنت أبحث عنه في الأرجاء قالوا لي بأنهم رأوه متجه إلى هنا. قال ذلك وهو في كامل الثقة، وكأن مارواه قد حدث بالفعل وفي قرارة نفسه كان يتمنى أن تخرج كي يراها.

- كلا لم أره، ولم أسمع عنه، ولكن متى ماعثرت عليه أو سمعت عن مكانه سآتي إليك وأبلغك بهذا فوراً.

فتفاجأ آستيا قائلاً:

- يبدو أنك تعرفني.

ابتسم الشاب الوسيم قائلاً:

- بالتأكيد... ومن ذا الذي لايعرفك أنت الأمير آستاسيوس.. تفضل بالدخول.

في تلك الأثناء نهضت جالينا من فراشها بفزع وهرعت تركض نحو النافذة تسترق النظربحذر ولّما رأته شهقت واضعةً كفها على فمها وأخذت تصلي وتبتهل كي تمر تلك الليلة دون أدنى انعطاف.

كانت غرفتها مظلمة وقد اسقط ضوء القمر شكل النافذة على أرضيتها وظلها على طرف النافذة، راودتها فكرة الخروج عليه ومواجهته كي لا يلتهمها الفضول ويصرعها الخوف للداعي الذي أتى به إلى هنا، لكنها كانت مترددة، وسرت اللحظات بين شد وجذب وانسرقت مخاوفها حين شاهدته وهو يبتعد في الظلام، فتنفست الصعداء، غير أن انشغالها لم يتوقف حين ترك لها آستيا في عقلها صورته وهو يلتفت ويتلصص على النوافذ حتى ابتعله الظلام.

هرعت مسرعة نحو شقيقها فقابلته عند مدخل البيت وسألته وحينما أجابها بما حدث عادت إلى غرفتها سعيدة على مرور تلك الليلة وخائفة مترقبة تفسر تبعات هذه الزيارة وتحاول أن تفكك أصفاد الغد لأنها أيقنت لتوها بدهائها أنه افتعل كل هذا كي يراها فقط وقضت تلك الليله بصحبة تخميناتها تفكر في الحيلولة لابتعاده عنها وعن البيت.

أما استيا بينما هو عائد مع صديقه قهقه بصوت عال:

– ما الذي يضحكك..؟ قال ذلك بشيء من الغضب

فأجابه استيا:

– غداً أو بعد غدٍ.. وفي الصباح.. سأبتاع حصان أبيض وستذهب أنت لكي تسرحه باتجاه بيتها.. وحين تتأكد من أن الحصان قد علق داخل سياجهم.. سأذهب لأجلبه منهم.. ففي الصباح سيكون ذلك الصعلوك الذي فتح الباب بالنيابة عنها في أحد المزابل.. ولن يكون ثمة أحد سواها في البيت.. وسترى.

فاشترط صديقه بابتسامة خبيثة:

- وأنا آخذ الحصان بعد ذلك.

- هو لك.

(٩)

أشرقت الشمس بين راحتي الربيع كان يسمو بها مجتازاً الأفق نحو السماء المائلة إلى اللون البنفسجي وأخذت أسلاك نورها تتسلق سفوح الجبال والأشجار والجدران وأبنية المدينة تلبسها كوشاح مخملي ذهبي وتتسابق ممتدة على السهول والطرق كمياه الذهب، أستيقظ باتوس باكراً، وكان زمهرير صباح الجبل الربيعي رابضاً في الأرجاء، نهض بحيوية تناقض عيناه الكسولتان اللتان لاتريدان أن تتفتحا.

فتح النافذة بقوة فسرت نسائم الجبل تحمل عبق الغابة الطازج وعبير الياسمين إلى الغرفة وكانت شرفة غرفته والغرف الأخرى والعتبات تعج بالحمام المعشش في الزوايا وأطراف العتبات فطار الحمام مصفقاً بفزع محدثاً جلبة يتخللها صفير الأجنحة التي كانت تشق الهواء بقوة وماح في الفراغ كسرب واحد وأخذ يسمو في السماء سابحاً ومسبحاً يتلألأ من انعكاس أشعة الشمس الأولى عليه وكأنه كان يمارس رياضة صباحية اعتاد على القيام بها أو أنه كان يستنشق ما لذّ من الهواء النقي.

حام فوق قوريني وازدان صباح المدينة بالبهاء والتفاؤل لأنها ذات يوم ابتسمت للصباح.. للربيع.. للحياة.

شرع الناس بالخروج إلى أعمالهم بمحياً مبهج وسرت صيحات الباعة المتجولين في الشوارع النـاعمة بزقزقة العصافير وصياح الديكة وخرير السواقي وحفيف الأشجار.

وعلى غير العادة كانت فيرا تغط في نوم عميق أو لعله كان نوم المنهك فحالتها أمست تسوء شيئاً فشيئاً بمرور الزمن الذي لايحسن سوى تعرية الأشياء، سوى كشف ضعفها أو تأسيسه بخبث، سوى الفتك بوتيرة بطيئة وعلى نحو موصول لا يمكن تداركه، ذلك الزمن الذي يشبه الأفعى كثيراً يحملنا حتى نطمئن ثم يطرحنا أرضاً كما تطرح الأفعى جلدها، ذلك الزمن الذي ينال كل شيء إلا خيباتنا يتركها لنا تنمو وتتفاقم وليس هذا فقط بل ينجح أيضاً في جعل أمجادنا من أعظم أحزاننا حين يجنح بنا ورغماً عنا بعيداً عنها فلا يترك لنا سوى مجال واحد وهو النظر بعين المفارق المشتاق. ذلك الزمن الذي يحب أن يجعلنا محطاً لسخرية أنفسنا قبل الآخرين يمتص القوة وينهك الجمال يذهب الحكمة وينتزع السلطة شيء واحد يخشى مواجهته، الذكرى، تلك القوة المستقلة الجبارة التي تحضرنا، بالرغم من ابتعادنا عنها إلا أنها تملك خاصية الحضور متى شاءت.

اقترب باتوس من رفيقة دربه وأشاح الغطاء عنها فرأى الشحوب وقد جعل وجهها مريباً تجول فيه الوحشة كبناء منهار، تجنب ذلك وابتسم، انحنى لوجهها وهمس مستبشراً:

– فيرا.. يا ملكة قوريني.. لقد استيقظ شعبك قبلك وهذا ليس من عادتك فيرا.. هيا استيقظي "

هز كتفها، مرة، مرتين، ضاعف قوته، ولاحراك، وهناك..

هبط عليه ثقل الأرض، هبط على قلبه مرة واحدة فاقشعر كامل بدنه و ضاقت أنفاسه وتصلبت شرايينه فما كان أمامه أنقاض امرأة، أنقاض عمر

سيعيشه من بعدها، بل أنقاض قلب فقد إحساسه بالحياة..، صرخ بأعلى صوته المتشحرج الذي دوى في ممرات القصر وأروقته، دوى في فضاء عمر مر، ودوى في دهاليز اللحظات التي جمعت بينهما.

هرع الجميع إلى الغرفة، الخدم وأبناؤه وأحفاده، وكان كل من يصل إلى هناك ينهار باكياً. وسط العويل والصراخ وضع باتوس رأسه على كتفها فأحس ببرودة جسمها وتباكى قائلاً وهو يحيط عنقها بذراعه " أي برودة غافلتني واجتاحتك دون أن أشعر.. أي برودة هذه التي أضحت تصول وتجول بدوي الماضي ورجع أوقات لا يمكنني استردادها.. أين ذهبت.. ياحفيدة مورينا.. ألم تقولي لي ذات مساء بأنك ستعيشين أكثر مني!! أين أنت.. أين قوتك وصبرك.. كم ابتعدتي يارفيقتي.." رفع رأسه، وراح يتجول بناظريه اللذين انكسرا في الغرفة، كان يتحسس وجودها ويستجدي روحها في البقاء.. أردف " صوتك لايزال هنا.. رائحتك لم تتركني.." عاد وأسند رأسه على كتفها يائساً بائساً يبكي مؤنبا لنفسه "هأنا وبعد فوات الأوان.. أقف وأشاهد بأم عيني انهيار حب عظيم..كيف.. قولي لي.. كيف..؟ كيف لي أن أقاوم هذا الانجراف.. انجراف كل لحظة فاتت.. وكل لحظة كان يجب أن أملأها بك..أي خيبة هذه.. سامحيني.. سامحيني.." وجعل يضرب رأسه على كتفها. ثم واصل مخاطباً نفسه " انشغلت بمن حرمني الحب.. لا بمن أهداني إياه.. سامحيني.." استنشق دموعه بنفس عميق غائر وتبسم باكياً وهو يتأمل وجهها الشاحب " أتذكرين.. ألم تضحكي عـــلى شيخوختي وضعفي.. هأنا الآن أبكي على فقدانك.. ويحك أيها الفقد.. ألم تتعلم بعد.. ألازلت تكرر فشلك في اختياراتك.. أم أنه يروق

لك التفرج على حسرتنا.. أم أنك تنتقم.. قل لي.. قل.." شده اركسيلاوس من يده وتعانقا يبكيان حسرة واحدة، وفقد واحد، غير أن باتوس كان سيبكي يوماً أو يومين لكن أركسيلاوس فلم يكن يكفيه كل عمره بكاءاً.

أن تخسر زوجة ليس كمثل أن تخسر أم، في خسران الزوجة خسران لما يمكن أن تعوض لنا الأيام مايشبهه، أما في خسارة الأم، خسارة لما لايمكن أن تعوضه لنا أيام الدهر مجتمعة مهما ثابرت في ذلك.

اسدلت ستائر الصمت الخانق على المدينة وعمد الأهالي فور سماعهم النبأ يتدفقون إلى الساحة منكسي الرؤوس، كانوا يتراصفون هناك ويبكون بمرارة في مأتم جنائزي كبير لدى سماعهم كلمات الثناء والبالغة على المنصة الشرفية وعبارات الشكر الصادقة لمواقفها الجليلة ووقوفها الدائم وتحيزها مع الفقراء والمحتاجين ولعل نواح وصيفتها دورا بنشيج عميق والدموع الهادرة لمن كانوا متحلقين حولها يتأملونها بشفقة ليعكس بجلاء مدى مكانة تلك المرأة في المدينة ومدى مرارة احساسهم بفقدانها للأبد.

(١٠)

مرت على هذا اليوم أشد الأيام حزناً على المدينة، كان نهار خريفي تعصف الرياح الجافة بالأوراق والأعشاب تحت ناظر الشمس وكان الراعي كارنئاد متكئ على ساعده تحت شجرة زيتون ينخر التراب الجاف بغصن، مستمتعاً بوشوشة أوراق الشجرة وبظلها الذي لا يكف عن الحركة بفعل الرياح وكانت أغنامه منتشرة حوله ومنهمكة بنهم في أكل حشائش الأرض، من خلال فوضى الرياح سمع جلبة في الأرجاء ولّما عدل جلسته رأى عربة قادمة نحوه فتبادر إلى ذهنه أن الملك قادم للإطمئنان عليه غير أنه سرعان ما ادحضت تكهناته حين شاهد أناتوليوس ينزل من العربة ويتجه نحوه.

مالبث حتى وصل إليه وطلب منه على وجه السرعة أن يذهب للملك فمذ ماتت زوجته لم يقابل أحداً، ولم يخرج من غرفته قط، كان قد أبلغه آركاد بالأمر وطرح عليه فكرة الذهاب إلى الراعي وأرشده إلى مكانه نظراً لما يكنه له الملك من تقدير.

كان باتوس جالساً على أريكة تقابل السرير مسنداً ذقنه على كفه ومطرق النظر إلى السرير، واجماً، وغارقاً في نفسه، يصارع الآلآم بسرور مر فيتفاقم ألمه، يواجه حنينه بالذاكرة فيستفحل، يجابه تقصيره بفرضيات فيدخل في أزمة أعظم، وكلما تقدم خطوة كان يتقهقر خطوات، وكلما حاول أن يبتسم كان يبكي، لقد كان مبالغاً في أحزانه كما بالغ في تحقيق أمجاده، كان قلبه كقلب العصفور غير أن تصميمه كان كتصميم النسر. كان يسأل نفسه حيناً، وتجاوبه

بما يحلو لها أو بعبارة أخرى تجاوبه بما يغيضه، يسترجع الأصابيح والأمسيات، ويستحضر سعادته مذ أول لقاء بينهما، يظل يسرد الأحداث يوماً بيوم، ولحظة بلحظة، إلى أن يصل إلى جلسته تلك، دون أن يدري أن استحضار السعادة الغابرة ليس إلا دعوة قلما يرفضها الحزن. كان يتأمل بمرارة وشاحها الأصفر الذي يفترش وسادته الذي يحمل ريحها وذكرياته معها، فرشه ليستأنس بها من وحشة الشيخوخة وطول الليل، فبعد وفاتها أحس بأنه قد أمسى عجوز طاعن في السن والتعب والترهل.

بينما هو كذلك طرق الباب فلم يلقي بالاً ولو بنظره، ومرت لحظات، ثم فتح الباب ببطء محدثاً صرير أجبره على الإلتفات نحوه ظاناً أنه حفيده باتوس، لأنه الوحيد الذي كان يتجاذب وإياه أطراف الحديث، فإذا به الراعي كارنئاد.

باديء الأمر تفاجأ باتوس، لكنه سرعان ما عاد إلى كآبته.

أحنى كارنئاد رأسه:

- عمت مساءاً يا مولاي.

اكتفى باتوس بإيماءة.

- أتسمح لي بالجلوس..؟

فأومأ له مبدياً موافقته.

جلس كارنئاد والالتباس يربكه وعيناه تتجولان في فسيح الغرفة فطوال حياته لم يجلس على أريكة فاخرة كهذه ولم يدخل غرفة بهذا الترف.

كما هي العادة استحكم الصمت وساد المكان، فتذكر كارنئاد تحذير اناتوليوس:

" لا تخرج من غرفة باتوس إلا وحزنه معك " رفع كتفيه وحاجبيه قائلاً:

" العزلة مربكة.. إنها تضعنا في موقف محرج مع أنفسنا.. ولهذا نهرع صوب الآخرين ونرتمي في أحضانهم.. لأن أخطاءنا في حق الآخرين أقل بكثير من أخطائنا في حق أنفسنا.."

لم يعلق باتوس وظل على حاله البائس مطرق النظر في السرير. فأردف كارنئاد:

- ثمة صلة رحم أخرى هي أكثر عمقاً وحميمية من صلة القرابة.. نشعر بها حين نقابل من يشبهنا في الفقدان.. لقد توفيت زوجتي قبل سبعة أعوام وتركت لي ابناءاً وأحزاناً.. ولقد تعلمت الكثير من الزمن الذي قضيته من غيرها.. أقل ما تعلمته أن واجب الحياة اتجاه الأحياء أكثر قيمة من واجب الحياة اتجاه الأموات.

خرج باتوس عن سكوته ونطق بحسرة:

- يال هذه الدنيا.. لابد أن تذيقنا أصناف مرها شئنا ذلك أم أبينا..!

- لاشيء دائم فيها سوى الذكرى... حين تصبح الأحداث المرة مجرد ذكرى.. تفقد مرارتها شيئاً فشيئاً حتى تفقد طعمها وتمسي حدثاً عارضاً يجذب

النسيان... كما تزداد حلاوة الأحداث الحلوة شيئاً فشيئاً.. وربما قد تصبح ذات يوم أسطورة.

اكتفى باتوس بالاستماع وتظاهر بعدم اهتمامه بما يدور، لكن الراعي لم يترك مجالاً لاستحكام العناد، فأردف بذات الوتيرة الهادئة التي كان يتكلم بها:

- أول درجات الموت عزوف الآخرين عن الاهتمام بنا.. أو عزوفنا نحن عن الاهتمام بالآخرين.. وآخر درجاته اهتمامهم بنا أكثر.. هون عليك يا مولاي فالكل يفقد ويجزع.

أشاح باتوس بناظريه بعيداً، لما وراء النافذة، وما وراء أسوار قوريني، وقال بحزن بالغ:

- التف الحزن على الأشجار واكتفت أغصانها بصمت مقيت.. الأودية غمرها السأم..أهل القصر كلهم يترقبون بخوف اللحظات القادمة.. الشحوب طلى السماء..

والنسائم أضحت مريبة.. الوحشة طردت الأمان الذي كان يسود غرفتي.. وثمة صفير مرعب يدوي في فراغها.. هل كل هذا من أجل موت أحدهم.. من أجل انتهاء عمر افتراضي قد تقدر مذ أول لحظة له على هذه الدنيا..!

- كل ما طرأ.. ما تراه وما تشعر به.. نابع من قلبك أنت.. أحزاننا يا مولاي.. هي من تشكل قتامة الواقع.. الطبيعة لا تتأثر بما يحدث لنا.. طبيعتنا

نحن حين نحزن هي من تتأثر.. تتخبط وينعكس إحساسنا على كل ما نراه.. وكل ما يراود فكرنا.

– فقدان من يعنون لنا الكثير أمر في غاية القسوة.. لأنك حينها تشعر بفقدان ثقتك في الحياة وينتابك الضعف والترهل مهما كانت صحتك... وليس هذا فقط.. بل تبدأ بالتفكير جدياً في لملمة حوائجك للرحيل.. لانك تدرك بأن الحياة ليست هي سر السعادة إنما هي فيمن يحيطون بك.. آه ياصديقي العزيز.. بوسع أي أحد من حولك أن يملأ مكان أحبتك وهم أحياء.. لكن يستحيل أن يملأ أحد مكانهم بعد موتهم.

– لا تنسى بأن هناك أناس يشعرون بالسعادة ولايدركون بأنك سببها.. ومن أجلهم يفترض بنا الاستمرار.. ثم لا تدري يحدث أن يجدد لك أحدهم سعادتك.. الحياة لا تتوقف.. وأعمارنا ليست مرتبطة بأحد لامن قريب ولا من بعيد.

– أي قيمة للحياة.. وأي معنى للسعادة.. بل أي داعٍ لهذا العمر الذي زاد على غير فائده.

– لا تجزع.. ولا تبخس العمر.. إنه الأثمن على الإطلاق.. ولا تستهن بالسعادة فلا أحد يعرف مكامن قوتها وقدرتها على الخروج بنا من أعقد الأمور.

– ليست السعادة ياصديقي.. بل حرمان السعادة هو مايؤرقني.. قد يضحي المرء بأشياء يمتلكها من أجل شيء ينقصه فرغبتنا للشيء الذي ينقصنا

بحجم الأشياء التي نمتلكها.. إنني أشعر بالذنب لقد انشغلت بغيرها ولم أولها إهتماماً أوفر.

– أهذا ما يحزنك فقط.. لا تكترث مجرد هـواجس.. أريد أن أسألك.. هل كانت تحبك..؟

التفت إليه وعيناه تتلألآن حزناً:

– لقد أحببتني بكل ما تعني هذه الكلمة من حب.

– إن كانت تحبك فسعادتها بوجودك إلى جانبها تفوق حزنها على انعدام مبالاتك بها.

تأوه الملك بعمق وقال:

– بمرور الوقت نحن ننسى من غابوا عنا.. وننسى أكثر من لم يغيبوا عنا يوماً.. هل تصورت هذا النسيان.. نسيان دام أربعون عاماً.. واستغرق زواجنا بالكامل.

تبسم كارنئاد قائلاً:

– نسيان جميل.. إنه كنسيان الابن لأمه وأبيه.. أجل.. النسيان لا يعني الغياب.. ولكن الحب أيضاً لا يعني الاهتمام.

سكت الملك حين عجز عن الرد على كلام الراعي الذي كان يعرف جيداً كيف ينسلّ بهدوء من كل موقف مهما كان قاسياً.

أطلق الراعي ضحكة خاطفة وقال مبرراً سبب ضحكه:

– قال لي سيدي اناتوليوس بأن لا أخرج من مجلسك إلا وحزنك معي.. فهل أستطيع أن أستعير حزنك.. واطمئن سأعيده لك فوراً بعد أن يتأكد سيدي اناتوليوس بأنني قد انتزعته منك.

اشرق وجه الملك بابتسامة وكأنه عاد إلى الحياة.. وقال:

– إنه يغار منك.

– ولِمَ؟

– لأنك صديقي الجديد.

– الصداقة مذاق آخر للحب.. والحب يستوعب الجميع..!

– ومذاق آخر للغيرة.. والغيرة لا تستوعب إلا واحد..كما أن الصداقة من أكثر الأسباب مدعاة للعداوة.

قهقه الراعي بصوت عال ثم أوصل ضحكته قائلاً:

– أجل.. المحبة والكراهية لا علاقة لهما بتقييم الأشخاص.. فيحدث أن نحب أحدهم من أجل الآخر ويحدث أن نكره أحدهم من أجل الآخر – ثم أضاف بحيرة – إنه ينتظرني في الخارج.

– قل له بأن باتوس أمرني بأن أحملك.. ثم احمله رغماً عنه.. وعندما يسألك عن السبب قل له بأنك حزن باتوس ولا بد أن أرميك بعيداً.

قهقه الراعي ثم قطع ضحكته وقال:

- إنه يحبك جداً.. لو رأيته حين جاء إليّ..!

هز الملك رأسه وقال متفاخراً:

- لم تجمعنا المحبة فقط.. بل العمر لحظة بلحظة.

ران صمت طويل بينهما. وبعد ذلك قال باتوس:

- عندما كنت أجالس عجوزاً في شبابي كان ينتابني أنس حميم.. أتدري.. حين أمسيت عجوزاً أصبح الإحساس بالغربة يتملكني حتى وأنا بين أبنائي... غير أن سعادتهم بوجودي كانت تريحني قليلاً..!

- سعادتهم بوجودك.. هأنت تقولها.. على الأقل حافظ على حياتك من أجلهم.

- أتمنى أن أموت وأنا واثق بأنني لن أسبب لأحد الحزن بموتي.. فما ذقته من حزن بفقدان الأحبة لا أريد لمن يحبوني أن يذوقوه.

- لامفر من الحزن إذن.. هأنت تعود به من جديد.

ضحك باتوس. وأردف الراعي:

- إن كنت لا تستطيع أن تنقذ نفسك من الحزن فصاحبه بدل أن تعاديه.

- هذا ما سيحدث.

هم الراعي بالوقوف وهو يقول:

– لقد تأخرت على أغنامي.. يجب أن أعود قبل أن تغيب الشمس – أحنى رأسه واستطرد بلطف – أيأذن لي يا مولاي.

– رافقتك السلامة.. وأعدك بأنني سآتيك في مرعاك.

أحنى رأسه مجدداً وأردف:

– لا تكلف نفسك أنا من سآتيك.

– كلا.. أحب أن ألتقي بك هناك.

– وهو كذلك.. إلى اللقاء.

استدار الراعي ومضى يخطو بارتباك نحو باب الغرفة كي يلحق أغنامه قبل حلول الظلام وقبل أن يصل صاح باتوس:

– انتظر.. خذ حزني لتريه لأناتوليوس كي يسمح لك بالعودة.

ضحك الراعي وأوصل ضحكته قائلاً:

– لاداعي لأخذه مادام قد أصبح صديقاً لك – ثم ضحك قائلاً – خبئ أمر صداقتك الجديده مع الحزن على سيدي أناتوليوس.. قلت لي أنه يغار.

ضحك باتوس فقاطعه السعال، وبعد أن عادت أنفاسه قال:

– سأقايضه.. إن اكتشف أمر صداقتي مع الحزن سأفضح أمر صداقته مع الغباء.. لأنه لم يبلغني عنها.

قهقه الراعي وضحك باتوس متفائلاً:

- أرسل في طلبه.

- أمرك مولاي.. وداعاً.

(١١)

بعد أيام من لقاء باتوس وكارنئاد والتزامه بالاستمرار من جديد، اقتنع باتوس بأن مافقده قد فقده وانتهى، واقترح على اناتوليوس بأن يذهبوا في رحلة إلى الجنوب نحو الخط الفاصل بين الصحراء وقوريني للإستجمام والترويح عن النفس.

كان الموكب على أهبة الاستعداد أمام بوابة القصر جاثم عليه الضباب والرؤيا تكاد أن تكون معدومة، كانت الخيول مبللة بفعل الرذاذ واقفة دون حراك وبين الفينة والأخرى كان الخدم والحراس يخترقون الصمت البارد بوشوشتهم بالإضافة إلى صياح الديكة والزقزقة المتقطة للعصافير.

تصاعدت جلبة العربة التي كانت تقل اناتوليوس حتى وقفت بجانبهم وهمّ أحد الخدم بمساعدته على النزول ثم صعد على متن العربة التي أعدت لنقلهم. جلس على المقعد وما لبث أن سيطر عليه الملل فصاح إلى أحد الخدم واستفهم سبب تأخر باتوس وقبل أن يكمل الخادم إجابته نزل باتوس من القصر برفقة ابنه أركسيلاوس فرآه اناتوليوس وهتف مفزعاً سكينة الصباح:

- لقد تأخرنا.. هيا.

ضحك باتوس وهز رأسه متحسراً.

في غضون ذلك ظهر كارنئاد من أقصى الطريق يخترق الضباب ويمشي بهدوء واتزان والجميع بانتظاره، ولّما اقترب أعطى باتوس الإذن بالانطلاق

وصعد على متن العربة التي كان يقودها آركاد، ونادا كارنئاد كي يركب معه وأصبح أناتوليوس وحده في العربة الأخرى، ركب الحراس على صهوات خيولهم واستقل الخدم بعجلة العربات فيما كان اركسيلاوس واقفاً يراقبهم بحبور على عتبة باب القصر وانطلق الموكب ومضى يبتعد عنه شيئاً فشيئاً حتى التقمهم الضباب.

بدأت أشعة الشمس في دفع الضباب واختراقه حتى ساوته بالأرض، فأصبحت الأعشاب والأشجار مبللة تعبق منها الروائح و تتلألأ كما لو أنها أرض من الألماس.

تنسم باتوس رائحة صمغ شجر الصنوبر النفاثة لدى مرور الموكب من الغابة وقال في حبور:

– ذكرتني هذه الرائحة بحرب شرسة حـدثت هنا قبل عشرات السنين مع إحدى المارقين. حاول كارنئاد أن يفهم:

– هنا..؟

– كلا ليس هنا... هنا قضينا ليلتنا... مكان المعركة هناك – وكان يؤشر بسبابته نحو رابية، واسترسل – كان سبب اندلاعها هو عدم اتفاقهم معنا على خلاف الآخرين مدعين بأنهم لم يقتنعوا بأننا ليبيو الأصل.. وقد عدنا إلى ديارنا بعد غربة سنين.. وأصروا على أننا مجرد مارقين ومستعمرين.

– في جميع الأحوال أنتم مستعمرون.

تفاجأ باتوس مندهشاً من جرأته:

– ماذا.. أجدادنا هاجروا من هنا بسبب الجفاف قبل مئات السنين وتوارثنا فكرة العودة إلى موطننا حتى تحقق لنا ذلك.

– نعم.. أجدادكم.. ولستم أنتم.. وهم أجدادهم من يشهدون بذلك.. وليسوا هم. ثم أضاف متسائلاً:

– وكيف استطعت الحصول على ولاء باقي القبائل..؟

– سأفسر لك ذلك.. يتشكل نسيج القبيلة بالولاء وليس برابطة الدم كما نظن.. والمصالح هي الخيط الذي يحبك هذا النسيج ويجعله متيناً.. لقد رأت القبائل أن تقديم الولاء والطاعة سيعود عليهم بالفائدة وسيحقق لهم مرادهم ومـا ينشدونه من امتيازات.

ران صمت مديد بينهما إلى أن وصلا إلى موقع المعركة، فقال باتوس بمرارة:

– هذا مكان تلك المعركة..آه يا صديقي وكأنه بالأمس.

راح كارنئاد يتأمل ذلك الميدان الذي أمسى حقولاً وبساتين بعد أن كان مليئاً بالقتلى والإحساس بتلك اللحظات الغابرة يغمره، لحظات اهتزاز الأرض تحت الجيوش الهادرة نحو بعضها، لحظات صهيل الخيول وأعينها جاحظة وأسنانها بارزة، لحظات رشق الرماح، وقدح السيوف، لحظات صراخ الصرعى، وبريق الدماء التي تتبخر برائحته، ولحظات هتافات المنتصرين الملطخة بالدماء البريئة، وقال بأسى:

– لكل جثة قصة حياة جميلة.. لكل جثة شاهدتها ملقاة هنا ثمة حلم جميل يحرسها كان يدور حولها وينتظرها بفارغ الصبر كي تقف من جديد ليكملا المسير معاً.. لكل جثة هنا خيبة فادحة كانت السبب في خروجها من الحياة.. لكل جثة هنا روح تبددت احتستها الأرض فتصدعت وزادتها ظمأ.. لكل جثة هنا حب لايزال ينبض رغم توقف نبضات قلبها.. ولكل جثة هنا ظِل ذكرى قاسية عنيدة لم تبرح مكانها لأنها لا تعرف الموت.. أريد أن أسألك.. عندما كنت على رأس ذلك الجيش. قاطعه باتوس بعصبية:

– عندما قدت ذلك الجيش.. كلٌ منا كان يحمل حلماً على قدر إمكانياته وتلك الجثث كانت لمن كانوا يحملون أحلاماً أكبر من إمكانياتهم.. كلٌ منا كان له هدف وتلك الجثث كانت لمن كانت أهدافهم خارج ميدان المعركة.. كلنا كنا نريد أن نرجع من تلك المعركة منتصرين وتلك الجثث كانت لمن راودهم الشك حيال انتصارنا.. كلنا كنا نريد الحياة لكن الحياة لم تكن تريدنا كلنا وتلك الجثث كانت من نصيب الموت.. أنت تعرف الحياة جيداً.. فلا تسأل عن طريقة موتهم.. فمهما كانت بشعة في النهاية هو موت.

صمت كارنئاد وابتلع حجته، فأضاف باتوس بحزم:

– للحفاظ على ما تحب يلزمك القيام بما لا تحب.

هز كارنئاد رأسه منصاعاً لما سمع وراح يراقب أحد الفلاحين بفضول بينما هو منهمك يفلح الأرض، وبعد برهة من الزمن عاد قائلا:

– أصبحت أرضاً خصبة.

أدرك باتوس مغزى كلامه ورد بتهكم وهو مطرق النظر أمامه:

- يحدث أن يفيدك المرء وهو حي.. ويفيدك أيضاً حتى بعد موته.

- أعلم دون الآخرين.. أنك دون الأخرين.. تخسر جزءاً منك كلما فقدت شيئاً تحبه ألم تكن تحب جنودك.. على الأقل هم من منحوك النصر..؟

التفت إليه قائلاً:

- وكيف عرفت هذا دون الآخرين.؟

ابتسم كارنئاد بمكر:

- لأنني واثق من فهمك للأشياء.. كلنا نفقد ونخسر.. لكن ليس كلنا على دراية بأنه سيخسر جزءاً منه كلما خسر إنساناً عزيزاً على قلبه.

- ليست خسارة الإنسان الذي تحبه.. ولا هي خسارة جزء منك بفقدانه.. نحن ماضون كلنا.. ولا يفصل بيننا سوى الوقت.. لكنها صعوبة تعودنا على الحياة من دونهم.. حين نكف عن تذكرهم تكف الحياة عن استجلابهم لنا.. فيخبو إشتياقنا لهم شيئاً فشيئاً حتى يتلاشى.. ونتعود حينها على الحياة من دونهم.

- يأسرنا الأحباب بحبل متين اسمه الأمل.. ويأسرنا الأمل بحبل أشد متانة اسمه السعادة.. وتأسرنا السعادة بأصفاد اسمها الذاكرة.. أنت تحتاج إلى حياة أخرى كي تنشئ فيها أملاً جديداً هم ليسوا فيه.. فحياتك الحالية مكتظة بهم حتى وإن كانوا تحت الثرى وموقنٌ بأنهم بمعزل عن غدك... فحتماً سيفاجئونك حين تجدهم في المكان الذي تظن بأنهم لن يصلوه.

أينع صمت جميل بينهما فيما كانت الخيول تجر العربة بوتيرة بطيئة، كانت عربة اناتوليوس وراءهم مباشرة وكان يغط في نوم عميق ويتصاعد شخيره ويختفي على نحو موصول وتتبعها عربة أخرى كانت تحمل الأمتعة فيما كان الحراس على صهوات خيولهم محيطين بالموكب.

بدأت الطريق ترتفع شيئاً فشيئاً حتى وصلوا الى قمة رابية فبدت لهم الأرض أسفل منهم منبسطة أفسيحة، كلها حقول خضراء وأشجار متراصفة، تترامى فيها البيوت على مد النظر. فهتف باتوس بامتعاض:

– انظر لهذا المنظر.. إنه في غاية الجمال..!

– منظر يجلب الاسترخاء والإحساس بالطبيعة..!

التفت آركاد وراءه وقال:

– أنقف هنا قليلاً أم نستمر..؟

فأجابه باتوس على الفور:

– كلا.. تابع المسير.

انحدر الموكب من هناك، ماراً بين تلك البساتين الغنّاءه وحقول السلفيوم، كان الاطفال يعترضون طريقهم من بعيد منتشرون على جانبي الطريق يلعبون ويركضون وراءهم. قال باتوس بحماسة:

– أي شيء تقع عليه عيني فكرك لابد وأن تراه بعينيك طال الزمان أو قصر.

التفت إليه كارنئاد ولم يعقب فاسترسل باتوس:

- وقفت هنا قبل أكثر من عشرين عاماً.. ورسمت في مخيلتي هذا المكان.. وانظر الآن.. كما كنت أطمح أن يكون بل هو أبهى بكثير مما تخيلته.

فقال كارنئاد ممازحاً إياه:

- أتخيلت هؤلاء الأطفال الذين يركضون وراءنا أيضاً..؟

قهقه باتوس بصوت عال وأوصل ضحكته قائلاً:

- شيء واحد لم أتخيله.. هو أن أمرعليه وبرفقتي أنت.

ضحك كارنئاد متفاجأً:

- أنزلني هنا إذن كي يكتمل المشهد.

- كلا.. لكل حلم مكافأة على تحقيقه.. وأنت هو مكافأتي.

ابتسم والخجل يلف محياه ثم راح بناظريه إلى باتوس وقال:

- إنه الإحساس بالعظمة..؟

- العظمة.. هل هي الحقيقية..أم تلك التي يتلفظها الآخرون..؟

- أفي العظمة معانٍ أُخر..؟

- العظمة الحقيقية هي التي يشعر بها الآخرون اتجاهك.. وليست تلك التي تشعر بها في نفسك.. تتصرف بعفوية بما حُبيت به.. فتثير من حولك

وتلهمهم.. وتزرع فيهم الهمة دون أن تدري.. هي ليست تقطيبة جبين.. وليست ابتذال.. ولا تقمّص ما لا يوجد فيك.

- لا أحد بمقدوره أن يكون إنساناً عظيماً. قاطعه باتوس:

- العظمة تسع الجميع.

فسكت ولم يعقب فيما استرسل باتوس:

- العظمة هي أن تصبح الإنسان... أتعرف مـن هو... هو ذلك الإنسان الخالص.. ولا أعتقد بأنه من الصعوبة بمكان أن نصبح هكذا... ثم لا تبخس حق أحد في نيل العظمة.. فلكل إنسان فكر.. قد يباغتك به لحظة استخفافك به.. ولكل فكر إنسان.. يعتنقه ويتبناه حتى نهايته.. وفكرته تلك هي مرتبته في الحياة وقيمة بقاء أثره من بعده.. فليس هناك شيء مستحيل.. المستحيل ياصديقي.. هو الكلمة التي تفصل بين عامة الناس والاستثنائيين.

***

حلّ المساء، وكان الهواء رطباً ساكناً والسماء غائمة مشوبة بالاضطراب ومشحونة يلمح فيها البرق كل لحظة من مكان، عرج كارنئاد بناظريه إليها متعجباً من فعل البرق:

- أترى البرق.. يبدو أنها ستمطر.

- لا أعتقد ذلك. قال باتوس ذلك دون أن يحرك ناظريه عن النار التي كان يتأملها أو بالأحرى يتأمل نفسه من خلالها.

– قم ونم في الخيمة. قال اناتوليوس محاولاً من خلال ذلك إثارة أعصاب باتوس، التفت إليه باتوس ببلادة دون أن يعير اهتماماً لما سمع وبعد لحظات قال:

– أتعرف ياكارنئاد.. إن الحيونات همها الوحيد هو أن تعيش.. لكن من أجل ماذا؟ هي لاتعرف.. أليس من المشين أن يدافع أحدهم عن حياته بشراسة.. في حين أن موته أو حياته سيان بالنسبة لنفسه وللآخرين.

رد عليه كارنئاد بحذر:

– يكفي أنك تدافع عن شيء تعرفه.. الحياة نعرفها جيداً.. أما الموت لا أحد يعرفه ولهذا نستميت في دفاعنا عنها. وراح بنظره إلى اناتوليوس الذي انتشى من ذلك الجواب.

عاد باتوس قائلاً:

– حسناً.. هذا يعني بأنه مهما كانت طبيعة حياتك فبالنسبة لك هي الأجمل؟

– بالطبع.. ولاتنسى حظك من الأحلام رغم أنها قد تؤذي حياتك.. وقد تكون السبب لأخذك إلى حياة أشد جمالاً.

– بالتأكيد.. ثم التفت إلى اناتوليوس قائلاً بسخرية:

– هكذا فهمت.. منذ زمن بعيد.. وأنا اسأل عن سر سعادة هذا التعيس
– ضحك بصوت عال فضحكا اناتوليوس وكارنئاد، ورد عليه اناتوليوس وهو يضحك:

- الأمر بسيط جداً. قاطعه باتوس:

- أكثر الأشياء جدلاً هي الأبسط فهماً.. فالأمور المحسوسة غالباً ما نعجز عن إيجاد تعريف لها.. الحب مثلاً.. هو أبسط شيء نفهمه ومع ذلك لو قلت لك أمعن النظر فيه وتفحص حقيقته.. كيف يتجلى فيك.. ومتى يخرج.. وأين يختبئ.. ستتوه.. لأنه ليس فكرة بل احساس.

فهتف اناتوليوس:

- لم أفهم..!

- ما لم تفهمه لايعني أن تنساه.. فلربما يأتي يوم وتفهمه أكثر مني.. رغم أنني أشك بذلك.. والعيب ليس في أننا لم نفهم.. العيب هو أننا لانريد أن نفهم.

ضحك اناتوليوس ساخراً بينما أردف كارنئاد:

- مولاي كان يقصد بأن الحياة فهم لاغير.. افهم نفسك.. افهم من حولك.. افهم القدر.. افهم الموت.

رد عليه اناتوليوس بشيء من الغضب:

- لست أجهل ما ترميان إليه ثم انني لست بالأحمق حتى آخذه على محمل الجد.

هز باتوس رأسه وقال بحزم:

– كلمة جاهل تعني الآخرين دائماً لا سيما الذين نبغضهم.. أما كلمة عاقل فلا أعتقد بأنها تعني أحد سوانا.. ثم إن ثقة الأحمق بما يعرف تعادل ما لايعرف.

ضحك اناتوليوس بانفعال ثم التفت لكارنئاد وغمز له بعينه الوحيدة:

– شيء واحد أنا أفهمه جيداً وأنتما لا تفهمانه.

– ماهو..؟ كذلك تساءل كارنئاد.

– إن الحياة لاتستحق كل هذا التعقيد.

– وكيف يأتي هذا.. فنحن حين نفهم الحياة نرى بساطتها. قال باتوس ذلك محاولاً استدراج كارنئاد بالكلام غير أن اناتوليوس رد:

– إذن.. أنا قد سبقتكما ومن المفروض أن تتقفوا أثري.

– أحياناً أراك حكيماً.. وأحياناً مهرجاً.. ووحده المهرج هو الذي يستطيع أن يتقمص دور الحكيم.. الأثر لايتركه من هم على شاكلتك.. يكفي ضلالك أنت.. فليس كل من عبر الحياة هو مجبر على إيضاح أثره كي يتبعه الآخرون.. ثمة أناس جدوا واجتهدوا في حفر أثرهم غير أنهم اكتشفوا في نهاية المطاف أن الطريق التي اتخذوها طوال حياتهم لم تكن إلا هاوية سحيقة لاقرار لها. تابع كارنئاد:

– ولا تنس الزمان في كل خطوة نأخذها ونترك بها أثراً يأخذ فينا الزمان خطوة.

– الزمن يأخذ منا الخطوة ويترك لنا أثرها. كذلك قال باتوس فرد كارنئاد والسكوت مهيمن على عقل اناتوليوس:

– لا يتركها لنا بل للآخرين.. فتلك الخطوة يراها الآخرون وربما نشعر بها نحن فقط. قاطعهما اناتوليوس:

– لو أخذتما خطوة أخرى في هذا الموضوع سألملم حوائجي وأعود إلى بيتي. ضحك باتوس واكتفى كارنئاد بابتسامة عريضة. فأضاف باتوس:

– في طريق عودتك تأكد من مسح أثرك في كل خطوة تأخذها تكفي أنت.

– أجل سأمسحها حتى لايذكرني أحد بعد موتي ساخراً من صحبتي لك. ضحك الجميع فيما قام اناتوليوس بكسل وحين وقف قال مخاطباً باتوس:

– أنت أكثر الناس جدلاً.. أتعرف لما..؟

– لِمَ..؟ قال ذلك وهو متشوق لجواب اناتوليوس الغريب

– لأنك لم تفهم بعد أن من يغرق.. يعني أنه قد مات ولن يعيش.. فالبشر حين يغرقون يظلون بشراً ولا يصبحون أسماكاً.

تلبك باتوس أمـام نظرات توجس كارنئاد حين وخزه بما لم يخطر على باله ورد عليه:

– لو كنت تفهم حقاً لما قلت ذلك.

– شيء واحد فهمته الآن فعلاً.. هو أن الانسان عندما يتغشاه النعاس يجب أن ينام وإن لم تنم فأعلم بأنك قد خسرت نصف حياتك. وأوصل كلامه بقهقة لطالما أثارت باتوس ثم أردف – النوم له النصف.

– عندك أنت أكثر. قال ذلك وقد جف وجهه من البهجة.

– أنا أفهم أكثر منك.. فأنا أتمرس على القبر.. الوقت ليس في صالحك ماهي إلا أيام وسندفنك.

– اذهب.. اذهب إلى النوم فهو الملجأ الوحيد لمن على شاكلتك

– على الأقل لي ملتجأ ألجأ إليه.

– أشعر بأن هذه النومة لن تستيقظ منها أبداً.

– إن صدق ما قلت فهذا من حسن حظك.. لأنك ستقلدني دون خجل وستتخذ أثري وهامتك في السماء.

– لا تخف لن أقلدك.. بل سأجعل من قصتك أسطورة يشاهدها الجميع في المسارح والساحات.. قصة حياة مهرج ضحك على نفسه فضحك الآخرون عليه.

لوح بكفه تعبيراً عن اسكات باتوس واستدار يخطو إلى الخيمة.

هيمن الهدوء وظلت فرقعة الحطب بين الفينة والأخرى تثقب ذاك الهدوء فيما كان البرق يسطع في جوف السحاب. بصوت مهتز غارق في الحزن تكلم باتوس:

– هذا ما تبقى لي من الأحباب. وكان يقصد اناتوليوس

– كلنا أحبابك. كذلك أجابه كارنئاد بذات الوتيرة الهادئة.

– بالتأكيد.. لكن محبتكم حديثة العهد.. أما هو فمحبة معتقة.. ناضجة.. رسختها المواقف.. وجملها طول الزمن. ابتسم والحزن يسيل على محياه ثم استرسل:

– محبتنا لأصدقائنا لاتقاس بما يتميزون به من خصال جميلة.. قد يكون أعز الأصدقاء بالنسبة إليك لايملك من الأخلاق سوى رديئها لكن داخل عينيه يشع ارتياح عجيب لا تجده في الآخرين.. الإعجاب شيء والارتياح شيء آخر. كان ينظر إلى الشراب بركني عينه وضحك ضحكة خاطفة وأردف:

– شربت الكثير بحثاً عن السعادة.. ولم ترْوني سوى خيبات الحياة. تنهد بعمق وسأل كارنئاد:

– هناك سعادة تفرزها الحياة.. وهناك سعادة تفرزها قلوبنا.. في ظنك أيهما أبقى..؟

ضحك كارنئاد ضحكة المتفاجئ:

– سأكون جريئاً بعض الشيء.. إن كنت تريد أن تسمع جوابي.

– لك هذا. قال ذلك وهو مبتسم

– السعادة التي تفرزها الحياة.. هي التي جعلتك تسأل هذا السؤال.. والسعادة التي تفرزها قلوبنا هي التي ستجعلني أجيبك..

- يكفي فهمت.

تلكأ كارنئاد وعاد إلى وكر الصمت وراح يراقب تنقلات باتوس بين ما يخالجه ومرت اللحظات حتى دفعت كارنئاد إلى الخروج من وكره متسائلاً:

- لما هذا الصمت..؟

ابتسم الملك قائلاً:

- إن الصمت لا يعني بأنك قد توقفت عن الكلام بل يعني أنك لا تريد من أحد أن يسمع ما تقول.

ارتاب الراعي رغم اعجابه بما سمع وهمس قائلاً:

- الصمت فكرة عظيمة قد يقضي المرء حياته دون أن تراوده.

أومأ الملك برأسه مؤيداً ما سمع وبعد برهة من الزمن قال:

- أتعرف.. أحياناً ينتابني الحسد من أولئك الذين حين يضعون رؤوسهم على الوسادة لا يسمعون سوى صفير أدمغتهم المهجورة حتى يأخذهم النوم.

- أتحسد أصحاب العقول الخاوية.. هم على هذه الشاكلة ليس إلى حين يأخذهم النوم فحسب إنما إلى حين يأخذهم الموت.. ثم إني أراك تمتهن الحزن!

- وما الذي جعلك تراني هكذا؟

- لأنه هو الوحيد الذي ينقصك.

ضحك باتوس إلى أن بدأ به السعال وأجاب:

- ربما هو إحساس الزهرة بالخريف.

- هو الخوف من الشيخوخة..؟

- ليس بالضبط.. أحيانا يخوننا العمر قبلها بكثير وخيانة العمر ليست خيانة.. خيانة الدنيا هي التي تؤرقني.

أوما برأسه مبدياً تفهمه واسترسل باتوس:

- الحزن يا صديقي.. يؤنسني من وحشة الأيام وريبة السعادة.. هل حدث ووثقت في السعادة..؟

- كلا..!!

- هل حدث ولم تثق في الحزن..؟

- الأمر نسبي.. فليست كل أحزاننا محل للثقة.. كذلك السعادة.

- أنا أسالك عن الحزن الذي تلامس به القدر وتصنعه حين ينتابك.. وتفهم به سريان الدنيا.

- أنت تقصد وقود أحلامنا وليس قاتلها..!

- أجل.. أجل هذا ما أقصده.. السعادة تمنحنا فرصة أن نحلم ووحده الحزن هو الذي يجعلنا نحقق أحلامنا.

أومأ برأسه:

- إذن بالسعادة ننشيء أحلامنا في مخيلتنا.. وبالحزن ننشيء أحلامنا على أرض الواقع.. لكن انظر من حولك.. الكل يحلم لكن قلة هم من حققوا أحلامهم!

هيمن الصمت، وانقطعت خيوط الفكر بينهما. قال باتوس:

- بدءاً من إحساس المرء بأنه مجرد زائر لهذه الحياة.. وانتهاءاً بإحساسه بوجوب عمل أي شيء يثبت لمن يأتوا من بعده أنه ذات يوم كان هنا.. هذا هو الحزن.

- ألا توفر على نفسك ياسيدي وتدع فكرة الأحلام جانباً.. ألا ترى معي بأن كل ماترنو إليه لايفيدك في شيء.. فمهما أجدت.. بين بطن أمك وباطن هذه الأرض تكمن حياتك.. ومهما كانت رائعه فإنها لن تتعداهن.

- لقد وضعت كل لحظة من حياتي في مكانها الحقيقي.. وهأنت ترى مبلغ حياتي من المتانة واستحالة انهيارها.. فليس المهم مكانك في الحياة.. المهم هو مكانتك عند نفسك.. عشت كثيراً.. ومررت على الحياة كسحابة اكتسبت أحمالها من أبخرة الأرض وأكسبت الأرض مياه... وهأنا الآن أشعر بتلاشي أركاني وذوباني في العدم.

- لا تجزع يا مولاي.. لا يقتلنا سوى الموت.

فقال بحزن بالغ:

– هناك أناس كثيرون.. رحلوا قبل أن أشكرهم.. فثمة أناس تتاح لنا فرصة شكرهم على موقف قدموه لنا.. قد يكون صدفة أو ماشابه لكنه يظل بالنسبة لنا معروف لا ينسى.. نظل وراءهم حتى نرد لهم معروفهم.. وثمة أناس لا تجد فرصة كي تشكرهم.. لأن موقفهم الذي قدموه لك كان حياة كاملة أسدوا لك بها معروفاً.. أرأيت مبلغ الصعوبة.. موقف يقدمه لك أحدهم يستغرق حياته كلها.. فكيف تكافئه.. وكيف ترد معروفه.

– ومن هم الذين أنت في حاجة إلى أن تشكرهم..؟

– أنت في حاجة إلى أن تشكرهم – رددها وكأنه كان يتذوق تلك الكلمات – حاجتنا إلى من نحب أكثر من حاجتنا إلى من يحبنا.. وحاجتنا إلى أن نشكر أكثر من حاجتنا إلى أن نُشكر..

– غريب هو أمرنا نحن بني البشر.. نعشق الأشياء في غير مواسمها.. ونتعلق بها حين تنقطع السبل بيننا وبينها.. ألأن الحنين يستهوينا.. أم لأننا نعشق الندم.. أم أننا نستلذ الخطأ.. حياة متداخلة في بعضها.. متشابهة إلى حد أنك لاتعرف الصديق من العدو حتى تخسر الصديق أو تخسر أمـام العدو.. لاتعرف الصدق من الكذب حتى تصدِق الكذب.. لا تعرف ما الذي تملكه وما الذي يملكك.. ووحدها قبورنا هي التي لن ينازعنا على ملكيتها أحد وستظل شاغرة إلى أن نعود.

– لا يهم ما يتصرف به الآخرون معنا صدقاً كان أو كذباً.. ما يهم حقاً هو الدافع الذي كان وراء التصرف.. فيحدث أن يكذب عليك أحدهم للحفاظ

عليك.. ويصْدقك الآخر من أجل أن يفتك بك.. فليس كل من يقول الحقيقة هو صادق.. أغلب الفتن أصلها حقائق كان يجدر بمن قالها أن لا يقولها.

ومرت الدقائق في هدوء وسكون وأخذت تتتابع حتى تمكن النعاس منهما ولم يبق في تلك الجلسة سوى بقايا جمرات في أحضان الرماد تحوطها الأكواب والأواني الفارغة وظل البرق يلمع في السماء طوال الليل واجتاح النوم كل من في المخيم عدى الحراس الذين قضوا تلك الليلة وهم يتجولون ويراقبون الأرجاء عن كثب.

***

الكل على استعداد دافق لكي يشي بما أرّقه من أسرار لطالما ألهبت فؤاده وأن كل ماحدث من آلام ومسرات كان يجب أن يعرفها الجميع.. لكن من ذاك الذي يجسر على البوح.. ومن الذي سنجده عند حسن ظننا يتلقى الأمر ويوميء متفهماً ما كنزناه - اختلس كارنئاد النظر إلى باتوس وتابع يفكر - الكل كان يدرك بأن السر ليس سر في حقيقته.. ليس كنزاً حقيقياً.. إنما هو كنز افتراضي جمّلناه وأضفينا عليه صفة اللمعان.. لأنه كان خلاف ذلك.. كان أهش وأشحب منطقة فينا.. خفنا أن تنكشف للآخرين فلا يعودوا يروا سواها وتظل محل انتقامهم منا ومحل سخرية الجميع.. فكان الحل الأمثل لها هو أن نجتهد لنجعلها بهذه القدسية.. وبدل أن نهان منها.. ندّعي بأننا فخورين بها رغم أنها هزيمة ساحقة من القدر.. ولحسن حظنا أننا نملك الوقت لنخبئه ونكبله وندّعي بأننا هزمناه أو ندّعي بأنه لم يحدث - راح يتأمل باتوس وهو يفكر - ثمة حنين يبادلنا به الآخرون حين يشعرون بأن في أفئدتنا سراً.. فوحدها الأسرار

هي التي اتفقنا جميعاً على أنها غيرموجوده في حين أننا جميعاً نتقاسم معها عيشنا وألمنا.. أسرار شتى.. منها ما توارى وراء الخجل.. ومنها ما كان معان عارية لا كلمات لها.. ومنها ما كان أخطاء فظيعة.. ونزوات مقززة.. وأيضاً منها ما أستكثرناه على الآخرين.. لأنه كان أجمل ما في حياتنا.. وكلما كنت حريصاً على الاحتفاظ بأسرارك كلما تلاشيت في ذاكرة الآخرين واختفيت وسطهم لعدم اهتمامهم بك.. وكلما كنت باذخاً بأسرارك.. كلما كنت محط أنظارهم ومثاراً لانتباههم.. فثمة شجاعة في حفظ الأسرار.. وأيضاً ثمة شجاعة في بوحها.. ترى.. مالسر الذي يرفس في داخلك ويتحين الفرصة المواتية للخروج..!"

قضى كارنئاد جلّ تلك الليله وهو يفكر في نقاشه مع باتوس، متسائلاً عن جدوى أفكاره ومآربها، فكارنئاد كان راع فقير، لباسه مهترئ، أخذ الحياة بساعده وفيض عرقه، وباتوس كـان الملك المطاع، المنزه، فكيف تنجح الصداقة فـي ظرف كهذا..!

استيقظ باتوس مصعوقاً. فنهض كارنئاد فزعاً:

- مابك يا مولاي...؟

التفت إليه وعيناه جاحظتان وسط حاجبيه المتدليين تتصاعد أنفاسه وتنخفض بوتيرة سريعة:

- لاشيء.. إنه كابوس

ربت كارنئاد على كتفه وابتسم مبدياً من خلال ذلك اطمئنانه:

- عد إلى النوم.

إنه كابوس عجيب..!

- ماذا رأيت.؟

- كنت قادم إليك في أمر ما.. إلى بيتك.. وحين فتحت لي الباب.. أتى أحدهم من ورائي وطعنني..!

- ألم تعرف من هو..؟ قال ذلك وهو يرفع حاجبيه متعجباً.

- أنت كنت تنظر إليه حين كان يتسلل نحوي.. وكنت على وشك تنبيهي.. لكنه هم بطعني قبل أن أنتبه فاستيقظت.

ضحك ضحكة هادئة وقال:

- ليتني كنت معك في حلمك لأطلعك على اسمه.. لا عليك حلم عابر.

أسوة بمن شارف على الموت، حيث تتجلى الدنيا بوجهها الحقيقي والذي لطالما استتر وراء آمالنا في الحياة، حيث نستجدي اللحظات كي تظل ولو للحظة لتدارك الأخطاء، حيث نستجمع ملامحها لنلحق بمن أحببنا قبل فوات الأوان ونبلغهم بزيف الحياة بعد أن نفضح حلتها الحقيقية، محاولين إقناعهم بزيفها، وللأسف كلنا تواقون إلى الحياة لانسمع إلا مانراه ولا نحس إلا بما يلمسنا، والموت لا يراه من يعود إلى الحياة ولا يصدقه إلا من شارف عليه، التفت إلى كارنئاد:

- يال صعوبة تلك المواجهة..!

- مع من..؟

- الموت.. لقد وطئت عتبته وعدت.. إن فيه من الوحشة والريبة مايجعلك تفقد جميع حواسك..!

- أنت حي الآن.. إنها أضغاث أحلام لا تجعلها تسكنك.

- أنا لا أخاف الموت.. فمذ تدفق الفهم في عقلي وأنا في انتظاره.. لكن إحساسي بخيانة ما في الأمر هو مايخيفني.. الطعنة أتت من الخلف وكنت أنت قبالتي.

ضحك كازنئاد ضحكة خاطفة:

- أتعني بأنني أرتب لك مع أحدهم خيانة ما..؟

- لم أكن أقصد ذلك.. أنا أقصد الخيانة.

- قر عينا يامولاي.

استلقى الملك على فراشه وعاد إلى النوم وبذات الطريقة اضطجع كارنئاد فعاد الهدوء إلى الخيمة فيما كانت موجات من شخير اناتوليوس تخترق الهدوء بين الفينة والفينة.

في تلك الأثناء دخلت إلى المدينة قافلة من تسع جمال قادمة من مصر، كانت متجهه إلى السوق تحمل سجاداً وأواني وكؤوساً وأكواباً من النحاس، كذلك كانت تحمل بعض الخضراوات المجففة وأنواع من العطور.

بلغة الفراعنة سألت عجوز كانت برفقتهم:

- أهذه قوريني.

بذات اللغة أجابها سائس الإبل " أجل "

راحت تتجول بعينيها الزرقاوين في الأرجاء، وقد مرت في طريقها على أحواض الأصباغ المترامية بألوانها البهيجة على مد نظرها، ورأت أحواض معاصر الزيتون ورأت جرار الخزافين وتأملت رسومات أمجاد تلك الأيام عليها، رأت حقول السلفيوم المنبسطة وأغمار القمح والشعير، رأت أحجار البناء الضخمة المقطوعة من المحاجر البعيدة تنقلها العربات على نحو حثيث بطوابير كطوابير النمل، رأت الحمامات العامة والناس تجيء وتروح عليها ورأت الفنانين يتدربون على خشبة المسرح، كان الإعجاب متوهجاً في فؤادها ويستدرجها الذهول ويسحبها من يدها دون أن تشعر لتتنسم عليل هوائها ونقاء طلتها، لتلمس معمارها البديع، لترى حداثة عهدها بالحياة وبراءة بنائها، لتسند رأسها الذي أثقلته صروف الدهر على جدرانها، لتهنأ ولو للحظة بأرياحيتها ونعومة ضيافتها، لتعيد شبابها وهمتها، لتتذوق مساءاً لطالما أنهكها انتظاره، ولتدع الدموع تنهمر كما تشاء.

تساءلت بنبرة حميمة:

- ما سر جمال هذا التراب ورائحته العليلة العذبة..وكأنني أرى مدينة لأول مرة.. وأنا التي جبت المدن قبلها.. أقف مشدوهة بين هذه الأشجار المتراصفة.. وأنصت والمتعة تغمرني بموسيقى حفيفها.. لماذا تفتعل في الرغبة

للمشي عبر كل هذه الطرق والأزقة.. لماذا يجبرني الحنين إلى طرق كل البيوت لأسلم على أهلها..

مالي أستلذ هذه العرائش المزهرة المسدولة على عتبات وشرفات البيوت الوادعة وتغريني زهورها لاستنشاقها. تأوهت بعمق وسألت السائس بنبرة ساخطة:

- إلى أين نحن ذاهبون؟

- إلى السوق..!

ابتسمت والسعادة تضرب يأسها كما يضرب الموج الشطآن الحجرية وعادت إلى نفسها وأردفت بحماسة " غداً سألتقيك.."

لم تلبث حتى تعكر مزاجها حين لامس برد تلك الليلة جسدها فطفقت تؤنب نفسها:

" الواقع أصغر من أحلامنا بكثير.. عجوز أهدرت حياتها من أجل حلم.. فأهدرت واقعها لأجله "

كانت الأنوار متناثرة عبر الطرق والسكون يغمرها، مضت تتأمل الأماكن بمرارة وبحزن عميق ودموعها تسيل عبر تجاعيد وجهها ولم تكن تدري أهي سعيدة أم حزينة، راضية ومتفائلة أم قضى عليها اليأس حتى أفقد فيها الإحساس أو ربما كانت فرحتها باللقاء الذي لطالما انتظرته، هي لم تكف عن البكاء بل ظلت تبكي حتى نامت في السوق وسط تمتمة الباعة وأجراس

الحيونات وظلت تسترجع كلماته وتسأل نفسها " ترى هل مازال حياً؟.. حيا كان أو ميتاً سأعرف غداً "

وتذكرت كلماته التي لطالما صدحت في ذاكرتها " للأبطال فلسفتهم في الحياة إنهم يغادرونها وهم في قمة عطائهم " عادت إلى نفسها كي ترد على كلامه بعد أربعين عاماً " وللأبطال فلسفة أخرى.. عندما لاتتاح لهم فرصة المغادرة هم من يغادروا بطولاتهم كي لا تتسخ " وتذكرت ما قاله ذات صباح " الحب مجرد ظن لهذا غالباً ما يخطئ ونادراً ما يصيب.. لكنه يظل مجرد ظن حتى نفقده " ابتسمت والحزن جاثم على سعادتها الغابرة " آه ياحبيبي.. تركت لي الكثير كي أظل أحبك إلى آخر لحظة في حياتي.. لم تترك شيئاً إلا ولك فيه حضور.. وكأنك قد اطلعت على مستقبلي " اختلط النعاس بالحزن والشيخوخة حتى ألقياها نائمة، ودموعها تتلألأ منعكسة على ضوء القمر.

***

في ظهيرة تلك الليلة في ساعات اشتداد القيظ وقف آستيا عند سياج بيت عشيقته يتفحص المكان عن كثب بعد أن أطلق صديقه الحصان في باكورة الصباح داخل السياج. مضى إلى البيت بخطى مترددة وعيناه تحدقان في الأرجاء بحذر فيما كان الخوف يمتص كل نفس يسحبه.

وصل إلى هناك وأخذ يطرق الباب بلطف ولباقة لم تعتدها يده وما لبث حتى فتح الباب.

في البدء أصبح جامداً مذهولاً من فرط المفاجأة، حين واجه كل ما اختمر في مخيلته، وما لف فؤاده، وما ألزم قلبه على إحساس متوهج يشبه الخوف إلى حد ما.

بلع ريقه الجاف بصعوبة، واجتاز صدمة الوهلة الأولى ورهبة حضورها تهتز داخله، وتمتم متلبكاً:

- ألم يعثر أخوك على الحصان..؟

- لا أدري. قالت ذلك واعتزازها يحرق نظراته المتعالية، وقد بدت عيناها أطول من لسانها بكثير.

- أظنني أعرفك. قال ذلك متصنعاً وكأنه قد نسيها أو أنها قد مرت عليه مصادفة في أحد الأزقة.

ردت عليه والصرامة تعتلي كلماتها:

- لا اعتقد بأن أحدنا مضطر لمعرفة الآخر.

هز رأسه الضخم بتعال وشى بحمقه، بينما أضافت بنبرة حازمة:

- أخي ليس هنا.. حين يأتي سأبلغه بأن هناك سائس قد أضاع حصانه ويبحث عنه أو بالأحرى قد سأل عن حصانه. وأخذت تدفع الباب لتغلقه، مد يده ومنعها متوسلاً:

- على رسلك انتظري قليلاً.. قال لي أحدهم أنه هنا.. عندكم.

ردت بنبرة عنيفة:

- نحن لا ندخل الحيوانات إلى بيوتنا.. إن كان هنا فابحث عنه خلف البيت أو في الإسطبل..!

- حسناً.. هيا..

فصاحت خائفة:

- إلى أين..؟

- ترافقيني في بحثي.. إذا شاهدني أحدهم هناك وحدي.. سيخيل إليه بأنني أسرق.

- سائسو الخيول نبيلون لا يمتهنون السرقة.

- إلام ترمي. قال ذلك حين نفذت آخر بقايا صبره.

راحت تنظر جانباً، فنهرها:

- يبدو أنك خادمة هذا البيت ولم تجدي من يعلمك كيف تكلمي سادتك.

أدار لها ظهره ومضى يبتعد ثم التفت إليها قائلاً بمرارة:

- ستندمين.. أعدك.

امتلأت شجاعة واندفعت كلماتها كالسهام:

- الرجال دائماً هم الذين يندمون.

وقف قبالتها متسمراً من لؤمها ورد قائلاً بازدراء:

- يندمون.. ولما يندمون..؟

- لأنهم أصغر من أحلامهم وأكثرهم انخداعاً بأنفسهم..!

- سترين..

- أجل.. سأرى مغبة وهم الرجولة الذي تدعيه.

- كلا.. أنا من سيريك ثمرة غرورك البائس.. وسيفضح فداحة بشاعة جمالك.

وأخذ يجر التراب بقدميه المتورمين والغضب يهدج بعنف في أحشائه.

ثمة زوابع تفتك بكل ما تمر عليه حالما يحتدم القتال بين رجل وامرأه، فالدنيا تنحاز على الدوام إلى جانب المرأة، وأيما كانت خسارتها ستظل دائماً هي الأقل خسارة لأن الدنيا تكن ولاءاً شديداً للمرأة كما أنها تستلذ العبث بالرجال.

***

في السوق كان الزحام شديداً، يتعالى ضجيج الباعة وينخفض تحت رائحة رطوبة السوق المتبخرة من أشعة الشمس اللافحة. وقفت تلك العجوز أمام أحد الحراس الواقفين على طرف السوق وسألته بصوت عال:

- أتعرف أرسطاطاليس..؟

- من..؟ قال ذلك حين مال إليها.

- أرسطاطاليس..!

- لا أعرف أحداً بهذا الاسم.!

- حسناً.. أتعرف أناتوليوس..؟؟

- من..؟

- أناتوليوس..!

- أتقصدين مستشار الملك..!!

- الأعور. ووضعت يدها على عينها.

- أجل.. أجل.. أعرفه.. وما حاجتك إليه..؟

- أنا أخته.

ضحك في البداية، غير أنه تدارك الأمر خشية أن تكون أخته بالفعل:

- حسناً.. سأوصلك إليه.. ولكن إذا كان لايعرفك ستندمين.

- خذني إليه وسترى.

***

عاد باتوس وأصدقاؤه من رحلتهم بعد أن عكر ذلك الكابوس مزاج الرحلة، كان أناتوليوس يغط كعادته في نوم عميق ويتمايل رأسه يمنة ويسرى من حركة العربة، وعلى متن العربة الأخرى كان كارنئاد جالساً بجانب باتوس يتحين الفرصة المناسبة ليقتحم سياج الصمت الذي انزوى باتوس بداخله منذ ساعات الصباح الأولى، كانا يتأملان الحقول المترامية على يمينهما وشمالهما، وبعد برهة من الزمن تنحنح باتوس متسائلاً بنبرة هادئة:

- لم تحدثني عن عائلتك..؟

أجابه كارنئاد وهو مطرق النظر في الأفق:

- توفيت زوجتي قبل سبع سنوات.. وأنا أعيش الآن مع أبنائي.

- ألم تراودك فكرة الزواج..؟

- كلا.. لم تعد فكرة الزواج تروق لي.. هناك أشياء لا تعوّض في حياتنا.

- زوجتك..!!

- ليست زوجتي تحديداً.. العمر لم يعد يتماشى مع تطلعاتي.

- إذن.. اخترت الوحدة..؟

- نعم.. بت أميل إلى الوحدة.

وسرى بينهما حديث تلقائي دافق ذو شجون كان كحديث النفس للنفس مسترسل سادت فيه العفوية، والاسهاب في الصراحة، حتى انتهى بهم

عـلى عتبة القصر، وعــلى عتبة نــهايات العمر، وأواخر ذلك اليوم - وأيضاً - على عتبة حقائق لطالما اتخذت موقف الحياد بينهما وبين حياتهما.

توقف الموكب أمام بوابة القصر وانتشر الجميع كل لشؤونه، صعد باتوس إلى القصر وسط ترحيب حار لأبنائه وأحفاده، وعاد كارنئاد إلى بيته راجلاً، يديه وراء ظهره، كان يسير وقلق خفي يدنو وينأى عن قلبه كما لو أن هناك مكيدة ما تتبعه، أما اناتوليوس تابع طريقه حتى وقفت به العربة أمام قصره فرأى أحد خدمه واقف بانتظاره أمام الباب.

بينما هو ينزل مسند يده على كتف الخادم، قال له الثاني بتردد:

- هناك امرأة غريبة الأطوار في الداخل تتنظرك منذ زمن.

- من هي..؟ تساءل باستغراب.

- قالت بأنها أختك..!

- أختي - بابتسامة عريضة أردف - يبدو أن الأرض تخلت عن أمواتها.

دخل والشك يتقافز أمامه حتى انتهت به الشكوك قبالتها، فيما كانت زوجته تقف بجانبها وتترقب بنظر ثاقب ردة فعله معها.

- مستحيل..!

- ما هو المستحيل..؟ قالت لاريسا وقد انزاحت عن وجهها ملامح البؤس لحظة رؤيته.

همس دون أن يبرح مكانه وعقله مشوش يوشك على التداعي.

- لقد متي منذ زمن بعيد..!

- ليس بيدنا أن نموت متى شئنا أو شئت.. أنا أمامك الآن أيها العجوز.. أين أجد أرسطاطاليس.؟

- باتوس.. إنه في قصره الآن.. أقصد أرسطاطاليس.!

- باتوس..!!

- أجل.. هنا يعرفه الجميع بباتوس.

- أكان معك في الرحلة؟

- نعم - ثم ضحك ضحكة غارقة في الحزن كانت شبيهة بضحكة المجانين - لقد أصبح ملكاً بعد موتك.

- ومن قال لك بأنني قد مت..؟ قالت ذلك وهي غاضبة.

- ألم تكوني على متن تلك السفينة التي تحطمت في عرض البحر قبل عشرات السنين؟

- أجل.. لكنني نجوت.

- وأين كنت طوال هذه المدة؟ في أعماق البحر!!

- كلا.. - ضحكت ضحكة حزينة وواصلت بأسى - قذفتني الأمواج على شطآن الفراعنة.. وقضيت تلك السنين مع عائلة كانت تعاملني بإحسان.

– عند الفراعنة..!! كذلك قال باندهاش

– أجل.. قضيت كل تلك الفترة خادمة عندهم.. حتى أخلت سبيلي إحدى صديقاتي حين رتبت لي السفر مع قافلة تجارية متجهة إلى هنا.. إلى قوريني.. بعد أن أمسى الجميع يلهج باسمها وازدهارها.

– وكيف تأكدت بأنك ستجدينا هنا..؟

– لقد فكرت في الأمر ملياً ولكنني ارتأيت بأنني لن أخسر شيئاً.. قبل أربعين سنة.. لم يكن لقوريني وجود.. ثم.. ما الذي سأخسره في مجيئي.. لا شيء.

– اجلسي. أخذ خطوات واسعة وجلس على الأريكة وجلست هي بدورها أمام مرأى زوجته الغاضبة، التي آثرت الوقوف كي يصل لأناتوليوس شجبها لما يحدث. أردف اناتوليوس بنبرة جدية تجرجر الحزن وراءها:

– أتعلمين أن لقاءك بباتوس على الرغم من فوات أوانه سيتسبب في جنونه.

لوحت بيدها وهي تقول بحرقة:

– فات الأوان حتى على الجنون.

التفت إليها وتأملها قائلاً:

– هو الوحيد الذي كان ولا يزال يقول بأنك لم تموتي.

أحنت رأسها عميقاً كانت تبدو كزهرة ذابلة وأتت كلماتها بمرارة:

- حقاً أنا لم أمت بعد.. لكن.. لم تعد بي حياة مذ هاجرتم.

فرد يديه هاتفاً:

- يالهذا القدر.. أنه يثير فينا الرغبة في الحياة دائماً.

لم تعقب واكتفت بصمتها فاردف:

- هيا قومي واغتسلي.. سنذهب حالاً إلى باتوس.. بالتأكيد هو في إنتظارك الآن.

حدقت فيه بطرف دامع:

- لم تتغير.

ضحك ضحكة باردة فاغرورقت عيناه بالدموع وهمس مغالباً حالته:

- لم يتغير شيء - ابتلع ريقه وبعد لحظات من التأمل أضاف - لكن كل شيء قارب على الانتهاء.

انهارت تبكي بعنف فهّم نحوها بسرعة واقترب منها وجعل يربت على كتفها محاولاً تهدئتها.

بعد دقائق أفرغت فيهن جعبتها من الأحزان عادت إليها السكينة فهمس لها:

– هيا قومي سنفاجئه.. إن في لقائك به لسعادة تعجز الألسن عن وصفها.

نهضت بشهيق عميق متقطع وبدأت تخطو بوهن، نادى خادمه:

– أوصل سيدتك إلى آركاد.. وأمره بأن يدخلها على باتوس دون أن يبلغه أحد.. ثم قل له بأن يأتي إلي فوراً. والتفت إلى زوجته التي كانت متمالكة لنفسها:

– هذه لاريسا خطيبة باتوس.. ظننا بأنها غرقت في البحر حين قررت المجيء إلى هنا من ثيرا قبل أربعين عاماً.. أترين المفاجآت.

ردت عليه بعصبيه وحنق:

– يبدو أنك في انتظار مفاجأة أخرى.

قهقه قائلاً:

– أنت مفاجأتي العجوز.

ومالبثت أن عادت إلى توازنها بعد أن شدها الفضول لمعرفة المزيد، فهرعت نحوه تسأله باهتمام فاضح:

– ما الذي تريد أن تفعله الآن..؟

– سترين.

***

أخذت لاريسا خطوتها الأولى في الغرفة كان التردد يلجمها عن الاستمرار لكن الشقاء نفخ فيها همة المقاتل الجسور.. فإذا بها تأخذ الخطوة الأخرى.. وتتبعها بالأخرى.

حين رآها لم يحرك ساكناً، مسك زمام نفسه لتمر اللحظات حتى يبان الأمر، فثمة أحلام كثيرة كانت متربصة تنتظر إغماض عينيه حتى تحوطه من جميع الاتجاهات بها، وثمة جنون، وقد يحدث أن يرى المرء ما لا يراه الآخرون، لذا فضل أن يظل بنفس الوتيرة الهادئة مترويا ببقايا أمل كان يلفظ أنفاسه الأخيرة حتى يتأكد من أنها لاريسا بشحمها ولحمها وليست من نسج خياله، فقد كان الشك يراوده بأن ما يراه أمامه لا يراه.

على عتبة لسانه كان اسمها، واقفاً، يتحرى بشغف اللحظة المناسبة لينطلق من جديد حاملاً معه أربعين عاماً من الانتظار، والشوق، واللهفة، والأحلام.

عمره لم يعد يحتمل الهفوات، ومكانته قد أضحت رفيعة لاتطاوعه على الانحناء، كانت ماثلة أمامه عجوزاً تمكن منها الزمن وامتصها التعب، لباسها شاحب، مثقل بالأغبرة، شعرها اختلط بالبياض، وترهل كامل وجهها، أما هو كان على خلاف كل من يراها، على خلاف كل من يعرفها، كان يراها تلك الفتاة الحسناء الواقفة على الشاطئ فقد كان يرى من خلالها حب توقف عن الحياة قبل أربعين عاماً.

- خلت أنك نسيتني. قالت ذلك وشيء من الخوف والتردد ينبع من عينيها الزرقاوتين.

– لم تخطري على بال النسيان. قال ذلك وكله مختلط في كله.

رمت عكازها بقوة وكأنها كانت تحاول رمي شيخوختها، جلست على الأريكة بارتباك لا تعرف ماذا تفعل.

– أبعد كل هذا العمر تذكرتي بأن لك وطن..؟ قال ذلك وهو جامد في سريره لا يتحرك سوى قلبه.

– الأوطان عليها أن تنتظر وحسب.. حتى يعود إليها مواطنوها..!

– ألم يقولوا لك بأن الأوطان من غير مواطنين يحبونها.. لاتداس..!

– لهذا.. قلت أن الأوطان تنتظر وحسب.

– ألم يراودك شك بأن الأوطان قد تنسى مواطنيها..؟

– وطن به حب.. وطن لا ينسى..

– لم يمسس طول الزمن عنادك.

أشرقت أولى الابتسامات بينهما في تلك الليلة الظلماء كانت تدفع الوحشة السائدة على قلبيهما، ثم استرسل في حبور:

– لم تكن لي ذاكرة.. فذاكرتي حرصت على تأسيسها وإزدهارها لكِ أنت.

– وقوريني للآخرين.

عاد الحزن ليطبق على شفاههما من جديد.

– لم تكن لغيرك.. لكن حظ الآخرين كان أنفذ. وطفق يمرر كفه الحزين على وجهه حتى أقاصي لحيته المتجعدة.

راحت بناظريها العابسين نحو النافذة وقالت:

– كان الأمل.. وتمزق بغرق السفينة.. وكان الاشتياق وزال بزوال حريتي.. وكانت السعادة.. وهاهي الآن تنبلج بحذر في قلبي من جديد – وسددت إليه نظره جدية وسألته – أتعرف سبب حذرها؟

– كلا..!

– لم تعد لدي ثقة بلقائك.. وأخاف أن كل ما أراه الآن مجرد مزحة لطالما كررتها الأحلام مراراً معي.

دخلت دورا الغرفة تحمل العشاء، تفاجأت في البدء من وجود تلك المرأة في الداخل فحدقت بها والشرر يتطاير من عينيها فيما أنقذ باتوس الموقف قائلاً:

– ضعي الأكل أمامها فهي لم تأكل منذ أربعين عاماً.

ردت لاريسا بحرقة وهي تحدق في دورا:

– يبدو أنك قد أكلت كثيراً خلال تلك السنين.

– نعم.. لقد أكلت كثيرا.. لكنني لم أذق طعمه منذ أربعين عاماً.

وهناك ارتطمت برأس دورا المفاجأة وخاطبت نفسها في ذهول " إنها لاريسا..!! هل نجحت الرسائل في إقناعها بالعودة إلى باتوس " ثم ارتطمت بها المفاجأة الأكبر " لكن لم يقرأ الرسائل أحد سواي " وضعت الأكل بارتباك على الطاوله الصغيرة أمام لاريسا واستدارت نحو الباب وعيناها مذعورتان ومضت تخطو بعنف وارتباك وصفقت الباب وراءها.

دب الصمت بينهما فيما كان فراغ الغرفة مليء بدخان البخور الزكي الذي كان يتصاعد ببطء كالخيوط من مبخرة كانت على منضدة بجانب سرير باتوس.

رفعت لاريسا ناظريها إليه وتساءلت بجدية وحزم:

- لقد مرّ زمن طويل..!

ابتسم قائلاً:

- أنت أمامي الآن.

هتفت بصوت أعلى وعيناها مبللتان بدموع الحسرة:

- عجوز نخرها الزمن.. خشنت أنوثتها من العمل.. وتلاشى شبابها في الغربة.

أجابها بوجه باسم وبنبرة متفائلة:

- الذين نحبهم لا يشيخون.

- ليس الذين نحبهم.. بل الحب هو الذي لا يشيخ

أومأ برأسه ومط شفتيه، ثم قال بنبرة حرينة:

- بل ذكرى الحب.

سكتت حين طمست تلك الكلمات رغباتها في الحلم من جديد بعالم الحب الذي لم يكن يبتعد في الحقيقة أبعد من خيالها، فالحب ينمو أسرع من الواقع، والحب على أرض الواقع إحساس عابر كأي إحساس ينتابنا غير أننا نتبعه أينما حل.

ابتسم في شجون حين أحس بانكسارها:

- لا تزالين شابة.

ضحكت مبدية سخريتها على نفسها:

- ربما الآن.

أسند رأسه المثقل بالتجارب والانتظار على الوسادة وراح يتأمل السقف، وبعد برهة تساءل:

- لماذا تقل ثقتنا في الواقع حين يصبح جميلاً.. ونقنع أعيننا بأن ما نراه أمامنا مجرد أحلام؟

فصاحت مؤنبه:

- ألم يبعدنا الواقع عن بعضنا أربعين عاماً.. ألم تقربنا الأحلام طوال تلك السنين..؟

- لكن الواقع كان أجمل.

- وأتعس.

- ليس أقل تعاسة من الأحلام.. فالواقع هو ما جمعنا اليوم.

ابتسمت ابتسامة عريضة حتى بدت آثار الشقاء على وجنتيها وقالت:

- إذن أنا لا أحلم..؟

- بالتأكيد.

- ألا تشعر بأن هذا اللقاء ليس إلا مراسم وداع قد رتبها لنا القدر..؟

- ليكن ذلك.. نحن لن نأخذ عمراً آخر على لقائنا هذا.. ثم إن هذا اعتراف صريح من القدر.. وهكذا نودع الحياة بنشوة المنتصر وحماسة ذلك الحب في شبابنا.

- عندما أتيت إلى هنا كنت أرغب في البقاء معك حتى آخر أنفاسي.. أما الآن وبعد أن رأيتك واطمأننت عليك انتابتني رغبة مسيطرة للذهاب.. أشعر بأن نفسي خدعتني حين سولت لي بأني لازلت شابة.

- ولماذا..؟

- لا أريد أن أخسرك مرة ثانية.

- ولماذا تخسرين.. ماذا حدث..؟

– من قبل.. خسرتك وكان ما يعزيني هو أننا نتنفس الهواء ذاته.. ونطأ الأرض عينها.. أما الآن.. فالخسارة ستكون أنكى.

– إلام ترمين.. أتخافين موتي.. قالتها زوجتي فيرا قبلك ولا زلت على قيد الحياة.

– ليس بالضبط.. أخاف موت أحدنا.. دعني أعود إلى ثيرا فهناك ستظل حياً بذكرياتنا التي تركناها ذات يوم هناك حتى أموت.. وهنا سأظل حية حتى تموت.

ضحك غير أنها لم تعر اهتمامها وتابعت تفسير مخاوفها:

– وأنا إن فقدتك.. أنا التي لطالما انتظرت هذا اللقاء.. أتريد أن أجابه فقدانك من جديد..؟

– لاتخافي ستموتين قبلي.. فكل من عاصرتهم كنت أحسب بأني سأموت قبلهم.. وها أنا أمامك وهم في قبورهم راقدون.

بررت بنبرة غاضبة دون أن تفكر:

– ثم إني أجد ريح امرأة أخرى في المكان.. أليس هذا وشاحها..؟

ضحك قائلاً بمكر:

– إزددتي فطنة في غيابك.. نعم إنها زوجتي فيرا.. ليتك قابلتها.

حال الصمت بينهما. وبعد لحظات قالت لاريسا:

– قد تنجح المرأة في العيش مع من تحب وتتقاسم حياتها مع امرأة أخرى معه.. لكنها أبداً ستفشل في أن تتقاسم معه ذكرى امرأة.

تنهد قائلاً:

– هكذا قضت فيرا حياتها معي.. أتخافين أن تشاركنا ذكرى فيرا كما شاركت ذكراك فيرا طوال أربعين عاماً؟

– حين تشاركني فيك امرأة أخرى.. سيكون هناك تفاوت في نيل انتباهك وعندها سأكابد الصعاب كي أحتويك ولو مرة في السنة.. أما إذا كانت تشاركني فيك ذكرى امرأة فأنا على يقين من أنني الخاسرة دائماً.. لأنها ستظل الأفضل دائماً.

– ولهذا السبب كنت طوال تلك السنين الأفضل دائماً.. يبدو أنك نسيتي بأنك عجوز حقاً. قال ذلك وهو يضحك.

ضحكت بدورها وقالت:

– كلا.. أعرف ذلك جيداً.. أنا عجوز حقاً.. لكنني امرأة..!

– سأصدقك القول – عدل جلسته وأردف وهو يبتسم للأيام الخوالي – طوال حياتي معها.. كنت كل يوم.. أحاول أن أجدد حبي لها في قلبي.. أما أنت فكان حبك يجدد نفسه رغماً عني كل لحظة.. كان أمراً في غاية الألم – اغرورقت عيناها بالدموع وتغيرت وتيرة ونبرة باتوس في الكلام حين نازعته رغبة جارفة في البكاء وتابع – ما وقر في القلب لايقهره الزمن.. لطالما كنت

أتطلع إلى يوم يخبو فيه أملي بلقياك فيدهشني القدر حين أراك أمامي.. وهأنا أراك أمامي فعلاً.. أتدرين لو لم يأتي الصبر في الموعد لكنت في عداد المجانين.. طوال غيابك.. كان الأمل على استعداد كي يقف إلى جانبي حتى الرمق الأخير.. والذاكرة منذ البدء اختارتك دون غيرك.

تأملته بعمق وقالت وعيناها ملأى بالدموع:

– كان الحب على حق حين اختارك.. ولهذا أنا لم ألم النسيان على تركك في قلبي ألماً.

راح يفكر وهو يهز رأسه ببطء ثم قال:

– قد نشعر بالأمان حين نعزل أنفسنا عن مواجهة الصعاب.. لكننا أبداً لن ننعم بالرضا إلا بمجابهتها.. كان لابد من مجيئي إلى هنا.. كان لابد من تأسيس مملكتي.. ولم يكن يخطر ببالي يوماً بأني سأخسرك.

– لا عليك.. كل ماحدث قد حدث.

– تعالي اجلسي بقربي ياذات العمرين.. فقبل أن يصلني نبأ غرق السفينة.. خلتك من تلك الزمرة اللاتي يبحثن عن الحياة الكريمة بعد خسارة حبهن.

ضحكت ضحكة خجولة وراحت بنظرها تتأمل السقف المزخرف بالرسوم:

– أنا لم أخسر شيئاً.. ربما بعض الوقت فقط.

- وهل كل هذا الوقت الذي مرّ.. مجرد بعض..!!

- أجل.. مر كنسمةً تحمل رائحة كريهة.

كانت لا تقوى على شيء سوى التذكر، سوى نبش ما توارى تحت أوقات بائسة، قاحلة، خالية من الحياة. أما هو كان به اشتياق جارف تعلّم الخجل لانطوائه الذي دام عقوداً. كان له حباً خالصاً عذباً لم يعكره الزمن.. كان فيه حزنٌ دافق لفوات الأوان. فالأنكى من الفشل في تحقيق حلم ما، هو أن يتحقق بنفسه ودون جهد منا، لكن بعد فوات الأوان. كان عنده حلم، فإذا به ذكرى، فإذا به واقع، فإذا باستحالته تتجدد بزمن لم يكن زمانه. كانت بحوزته همة، فإذا هي بيد الزمن سحبها ذات مساء دون أن يدري، نهش انـطلاق روحه، وامتص جسده، وأعـتم طلته على الحياة.

دُفع باب الغرفة فارتعشت المصابيح وظهر عبر الباب صندوق كبير مصنوع من الخشب كان يحمله آركاد بجهد ظاهر تقدم يخطوا وأطرافه ترتعش ووضعه بجانب السرير، تفاجأ باتوس من طريقة دخوله وصاح:

- ما هذا؟

- إنه صندوقك.

- صندوقي أنا. والتفت إلى لاريسا متعجباً.

- نعم يا مولاي - أحنى رأسه وقال بصوت مرتعش ونبرة تنم على الندم - لو سمحت لي أريد القول بأنه لايمكن لكائن من كان.. أن يكون سيئاً

أو خائناً متى شاء فالظروف أحياناً تبرر لنا أفظع الأفعال.. والأمر في الغالب بيد الحظ.. لقد كنت محظوظ بالفعل..ولست يا مولاي الوحيد السعيد هذه الليلة فلربما أنا الأكثر منك حظاً وسعادة.

تساءل الملك بتعجب:

- ما بك..!!

- لا زلت تذكر عندما كنا نذهب إلى البحر.. كنت تكتب رسائلك لسيدتي - وتطلع إليها وأحنى لها رأسه وهي تحدق به لا تلوي على شيء ثم استطرد - وتضعها في قارورة من الزجاج وبعد أن تغلقها بإحكام وترميها على صفحة البحر فتحملها الأمواج.. كان ابني يقفز ويسبح نحوها بعد أن نعود ويلتقطها ويعود بها إلى البيت فأخبئها هنا.. داخل هذا الصندوق - كان باتوس يرمق الصندوق مندهشاً في صراع محتدم بين الغضب وبين الفرحة في قلبه، ثم أضاف - لكني كنت أخبئها بعد أن أفتحها وأستخرج النقود التي بداخلها - سكت قليلاً، فيما تبادل باتوس نظرة شاردة مع لاريسا، وأردف بشجاعة أكثر - لم يكن ذلك التصرف نابعاً مني في الحقيقة.. لقد كان هذا رأي سيدي اناتوليوس أن أخبئ الرسائل كي لا يقعن بيد أحدهم.

فهتف الملك في ذهول:

- كل هذا كان يحدث دون أن أدري..!

- إن كنت تذكر يامولاي.. عندما سألتك عن الدافع وراء وضعك للنقود الذهبية داخل القارورة.. قلت لي يومها بأنها ممن نصيب من يوصل هذه

الرسالة إليها – ورفع هامته واستجمع ثقته قائلاً – وهأنا الآن أقف أمامك وأرجو منك أن تسامحني أولاً.. وأن تسمح لي ثانياً.. بأن أسلم كل هذه الرسائل إليها حتى يكون الذهب من نصيبي هذا حتماً بعد موافقتك.

قهقه باتوس منفعلاً مما سمع ومما رأى، فلطالما تمنى بشغف أن تقرأ لاريسا رسائله وقال وعيناه جاحظتان شاردتان في نقطة في الفراغ:

– إنه يوم عجيب حقاً.. اندلقت فيه كل أمنياتي دفعة واحدة.

حمل آركاد الصندوق ووضعه أمام لاريسا ثم فتحه فدنت لاريسا إليه تراقب بفضول وعن كثب القوارير المتراصة داخل ذلك الصندوق مدت يدها بخلسة ورفعت إحداهن وفتحتها ثم أخرجت الرسالة. كان باتوس يتأملها مبتسماً والسعادة تلوح في قلبه، رفعت عينيها نحوه وقالت باستغراب:

– أنت تعرف بأنني لا أجيد القراءة..!!

قهقه باتوس أمام استغراب آركاد وثورة ظنون لاريسا بأن تلك الرسائل لم تكن لأجلها، فتدارك الأمر وأجابها بحميمية:

– الأموات يجيدون القراءة.. فلم تكن هناك وسيلة أخرى أصلك بها غيرها.. ثم لا تقلقي – التفت إلى آركاد ليأمره، فقاطعه آركاد بصوت مليء بالسرور – سأرسل في طلب دورا.. إنها تحسن القراءة.

– أحسنت – ثم راح ينظر إليه بجدية وأردف – كنت أكثر حكمة مني.. ولكن لا أريد شبيه لأمر كهذا مرة أخرى.. لا تكرر ذلك معي... لأنني لن أسامحك أبداً.

- أمرك مولاي.

ولم يمر وقت حتى دخلت دورا الغرفة على استحياء وأخذت سيدتها الجديدة معها برفقة رسائلها وأشواقها إلى آمال اقتحمت الواقع بعد انتظار طويل في فؤادها.

***

جلست على طرف السرير، فيما كانت على طرف الحياة، وعلى أعتاب الشيخوخة ومشارف النهايات. اغتسلت وبدلت ملابسها فوعاد إليها بعض من نظارتها حين تبلل قلبها بلقائه فنظف من عوالق الزمن وتعطرت ببهجة لطالما اشتاقتها روحها، جلست دورا بجانبها وفي حوزتها إحدى رسائل باتوس تكتنفها رغبة جارفة للتعرف على قاطنة قلب باتوس الحقيقية، متسائلة في نفسها: "أتذهب العشرة والصحبة أدراج الزمن..؟ أم أنها ستبقى مختزلة داخل سويداء القلب تفرض نفسها على كل حب مضى مهما كان جميلا..؟ أيرجع الحب البعيد ويشق طريقه من الماضي ضد تيار الزمن ليصل إلى الحاضر ويطل كما لو أنه لم يغادر قط..؟ أم أن طول الزمن وشدة تياره ستبتلعه وتجرفه في قيعان النسيان ليفضح الذاكرة..؟ "

ابتسمت لاريسا ممتنة، مبدية سرورها بالمعاملة الحسنة، وبعد برهة كانت مثقلة بالتخمينات انتبهت دورا للابتسامة فبادلتها بإبتسامه تجلت عليها الغبطة والتعجب، أحنت رأسها بخجل وفردت الرسالة في ارتباك وهمست بصوت مهتز هادئ:

- أأقرأ لكِ الرسالة؟

بلهفة الفتيات المراهقات قالت العجوز:

- أجل.. اقرأيها ببطء كي أتمكن من استيعاب مضمونها.

فقرأت:

" ألم الموت في أنه يأخذ الأحبة من الحياة ولا يأخذهم منا.. يوقفهم عن الحياة معنا ولا يوقفنا عن الحياة معهم.. ففراقنا الحقيقي بهم ليس يوم انقضاء أعمارهم بل يوم انقضاء حبنا لهم... في غياب الأحبة ثمة حضور أشد وطأة من لو أنهم حضروا.. هم يعيشون في ذاكرتنا ويتقاسمون الحياة معنا.. وبقدر حبنا لهم هم يحضرون.. لكم تحزنني المسافات التي بيننا.. ليتك هنا.. فقوريني اليوم قد أصبحت مدينة آسرة.. ذاكرتي لا تزال حية بك.. لأنها لازالت تتنفسك.. وتبتسم لمرورك في خاطري.. أملي بلقياك تهاوى واندثر.. ولم يبق سوى أمل واحد هو أن لا أنساك.. إلى الآن.. لكِ زياراتك المفاجئة تجدد صورتك كما تجدد الأمواج طهر البحر..

لكِ إلى الآن.. غياب قاهر أتحسس به وجودك في مكان ألمي.. لك إلى الآن.. ابتسامة فريدة تداعبني في نومي واستيقاظي.. بحوزتي أنت.. ومعي.. وكل يوم بجانبي.. في الحقل.. أتذكر براءتك فأجدني أشاهدك تلعبين مع الأطفال.. على المسرح.. أتذكر روعتك فأراني أتتبعك وأنت ترقصين وتغنين.. على العرش أتذكر رهبة حضورك فأستلهم منك قوتي..

لاتنسي قلت لي ذات صباح أنك ستاتي "

رفعت دورا ناظريها إلى لاريسا وراحت تتأملها وهي شاردة تحاول أن تهدئ من روع الهيجان الذي أفتعل في قلبها مما فاتها، فقالت دورا بابتسامة صادقة:

– أتعلمين.. أكاد أحفظ كل الرسائل.. إن لي معها علاقة عجيبة.

– ماذا وجدتِ بها.. وماهو السر الذي جعلك ترينها بهذه الحميمية. كانت تحاول من خلال هذا السؤال أن تقارن مدى إدراكها لما سمعت.

– لكِ أن تقولي.. كل ما اختمر في قلبي.. وظل في غمرة الانتظار.. ولم أجده في زوجي.

***

بعيداً عن بهجة القصر عاث السكر في عقل أستيا وغرقت كل أفكاره حين تغلغل فيها الخمر فغدى مجرد جثة تحت نير الشهوات، خرج من مجلسه عندما اشتد به الحال، وضاق به البال من سخرية أصدقائه وسخرية نفسه عليه.

هرع أصدقاؤه يركضون لإيقافه عما أختلس عقله، وناداه أحدهم بهلع:

– لا تذهب.. انتظر.. عد ونحن من سيجلبها لك إلى هنا. بصوت مترنح مليء بالغيض استدار قائلاً وهو يلوح بسيفه:

– من يرغب في الموت يأخذ خطوة نحوي.

وقفوا مشدوهين بعد أن شلهم الخوف دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة وتابع طريقه نحو بيتها تحد الرياح من مضيه غير آبه باعتراضها وهو يتمتم بقتلها إذا لم تأت معه، فمن يستطيع أن ينتزع الفكرة التي رسخها له أصدقاؤه بأنها متيمة به وتحبه كما يحبها غير أن إعراضها عنه لا يعدو كونه مكابرة.

في غضون ذلك ارتأ أحد أصدقائه بأن ينطلق أحدهم فوراً وعلى وجه السرعة لإبلاغ ولي العهد فهو الوحيد الذي كان بوسعه أن يوقف هذا الثور الهائج.

لقد سولت نفس استيا له بأن كل ما يتمناه وما يحلم به من خصال نبيلة كان يمتلكها ولهذا كان على عقيدة راسخة بأن أجمل نساء الأرض ستحبه بمجرد أن تراه وأنه على قدرة وكفاءة عالية لقيادة الجيوش وخوض المعارك ولم تنتهي ظنونه هنا بل وصلت إلى حد أنه سيصبح ملكاً فوق العاده يتبارك التاريخ باسمه وسيكون في مصاف الآلهة.

وقف يلهث تلقاء بيتها الشاحب وسط لجة الظلام وشرع ينحت خطواته على التراب بشكل متموج، كانت الثماله تجبره على السقوط وتحاول الرياح العاتية جاهدة لاعتراض طريقة لكن عناده الأحمق أوصله أمام بيتها دون أن يعير ادنى اهتماماً للكلب الذي كان ينبح بجنون عند قدميه.

طرق الباب بعنف حتى اهتزت اركانه، كان كل أهل البيت ينعمون بالنوم، زاد من وتيرة طرقه فاستيقظت جالينا مفجوعة ونهضت والفزع

يتخطفها يمنة ويسرى، وصلت إلى الباب فتأكدت بأنه الطارق لأنها كانت تتوقع مجيئة بطريقة خسيسة وكان حدسها في محله.

أخذت تستنجد بأبولو كي يلهمه بالذهاب قبل استيقاظ إخوتها، وبينما هي على هذه الشاكلة المرثية خرج أبوها من غرفته مرعوباً وهو يصرخ:

- ما الذي يحدث؟

استسلمت للأمر وصار لابد من الاعتراف وهتفت باستجداء:

- لا تفتح الباب يا أبي.

دفعها جانباً وهو يقول بنبرة تحدي:

- ولما لا أفتح..؟

- يبدو أنه لص.

- أيقظي الأولاد.. أسرعي

- حسناً.

وانطلقت تعدو دون أن تغادر عيناها الباب الذي كان يرتعش تحت وطأة الطرقات العنيفة، فتح أبوها الباب فتقهقر استيا متفاجأً وقال ولسانه يتدلى وعيناه عابستان حمراوان نصف مفتوحتان ملوحاً بسبابته:

- اذهب واجلب لي جالينا.

طفق غضب الأب وسأله وهو مقطب الجبين:

- ماذا قلت؟

- هيا اذهب بسرعة قبل أن أقتلك. وكان يهدد بسيفه.

في تلك اللحظات العسيرة كانت جالينا واقفة عند باب غرفة إخوتها وقد أثناها كيد النساء عن إيقاظهم حين سولت لها نفسها بأنها ستنجح في تدارك الأمر وعادت تركض إلى أبيها.

وضع استيا نصل السيف الحاد على كتف أبيها، وحين رأت ذلك هرعت نحو استيا ودفعته بقوة فهبط كتمثال جيري تصاعدت الأغبرة من حوله إثر سقوطه.

- هل استيقظ الأولاد. كذلك صاح الأب على عجل وبارتباك. بذات الوتيرة ردت:

- كلا.. لا يحتاج هـذا السكير الوغد إلى أن أوقظهم.. إنه أقل من ذلك بكثير جداً.. ادخل أنت.

نهض استيا بصعوبة وهو يسب ويشتم والتقط سيفه وهجم هجوماً خاطفاً مرعباً كما لو أنه قد امتلك قوة الشياطين لتنفيذ ضربته القذرة حيث كان يقابله الأب بيدين حافيتين يحاول عبثاً مسك السيف بهما ومن سوء طالعه لم يرى غير بريقة الخاطف وأحس ببرودته وهو يخترق أحشاءه.

صرخت جالينا وضمت أباها فسقطا معاً، أما استيا وقف مصعوقاً حين انسلت منه تلك القوة الشيطانية وتلاشت أحقاده واكتشف عظمة مصيبته

فاحتل الهلع فراغ الشر الذي هرب، وسرعان ما اختار الهرب وراء شره، يتبعه، ويركض وراءه الكلب. في تلك الأثناء طار الأولاد مصعوقين من العويل الذي دوى في ممرات البيت وتسابقوا إلى الخارج فوجدوا أختهم تجر أبوهم الغائب عن الوعي إلى غرفته وهي تنتحب بحرقة وتؤنب نفسها.

قابل آستيا أخوه اركسيلاوس وبرفقة عشرة من الحراس وأصدقاء استيا خارج السياج بقليل وتأكد اركسيلاوس أن ما كان يخشى حدوثه قد حدث وانتهى حين رآه يركض نحوهم كالمجنون. صرخ اركسيلاوس والغضب يتطاير من عينيه لدرجة أن حصانه ارتعد من شدة صوته:

- ماذا فعلت..؟

أجابه بهلع وعيناه تبرقان كعيني طفل صغير:

- أسرع - وكان يؤشر بسبابته إلى البيت - إنه يموت تدارك الأمر.. أرجوك - ثم تابع الركض. أشار اركسيلاوس إلى اثنين من حراسه وأمرهما بالذهاب وراءه ولوح للبقية باللحاق به.

أخذت أصوات حوافر الخيل تتعالى فتبادل الأبناء نظرات مليئة بالحيرة والفزع حتى توقفت أمام البيت وبينما هّم أحدهم لاستطلاع الأمر دخل عليهم اركسيلاوس فجأة ويتبعه أصدقاء آستيا واثنين من الحرس فيما بقي الآخرون يحرسون في الخارج.

حين رأى أركسيلاوس الرجل مسجياً على الفراش ومضرجاً بالدماء

أصابه الذهول ومكث يحدق فيه حتى كاد أن يغشى عليه من هول ما رأى، فتح الأب عينيه وقال بصعوبة متحدياً آلامه:

- سيدي اركسيلاوس.

فصاح اركسيلاوس غير مصدق:

- كارنئاد.. ما الذي حدث؟

- لقد طعنني ابن من أصبح من أعز أصدقائي. قال ذلك حين برهنت دمعة انسكبت على خده عظيم صدقه وحبه لباتوس وجلل حزنه عما حدث. هرع اركسيلاوس إليه ووضع راحته على الجرح:

- الجرح ليس عميقاً.. لاعليك - والتفت إلى أحد الحرس - اذهب فوراً وأتني بحكيم القصر.

- أمرك مولاي.

- كيف حدث كل هذا. سأله اركسيلاوس بانشغال حزين

- كنت نائماً واستيقظت على هذه الطعنة. فقاطعه أكبر أبنائه وكان مختنقاً بغضبه تكتنف مقلتيه رغبة جارفة للانتقام:

- لقد جاء إلى هنا قبل أيام.. وقال بأنه يبحث عن حصان ضائع. فأضافت جالينا بحنق:

– كلا.. لم يكن يبحث عن الحصان.. كان يبحث عني أنا.. ويتعقبني في كل مكان.

فسألها اركسيلاوس باهتمام شديد:

– ولماذا يبحث عنك..؟

أحنت جالينا رأسها ودموعها تنهال بغزارة، ففهم اركسيلاوس الأمر:

– حسناً... أنا من سيهتم بأمر هذا المجنون. وأجال النظر في أبناء الراعي وأردف بابتسامة شاحبة – اهتموا به إلى أن يأتي الطبيب وأعدكم بأنه لن ينجوا من العقاب. خرج وهو مكسور الفؤاد من فعل شقيقه يتحسس في نفسه ردة فعل أبيه لوسمع بالأمر، جلس على عتبة باب البيت بعد أن أمر بانصراف أصدقاء آستيا وظل جالساً هناك، تعبث الرياح الباردة بأسماله وشعره، ويضيق صدره لحظة بعد لحظة كلما حاول دفع الشؤم الآزف بعيداً.

أتى الحكيم وسط ترحيب الكلب بنباحه المزعج ودخل البيت وهو يهرول وآثر اركسيلاوس البقاء ولم يبرح مكانه يترقب الدقائق متمنياً مرورها من غير مصيبة لا قبل لأبيه على تحملها، ومرت اللحظات المشؤمة ببطء شديد وقبيل الفجر بلحظات خمدت الرياح وسكن الهواء المغبر وعادت السكينة إلى الكلب فالتوى على نفسه ونام، فقام اركسيلاوس ليطمئن على كارنئاد وما إن دخل البيت حتى نشب دوي الصراخ في الأرجاء فانقبض قلبه واستدار عائداً قبل أن يصل إلى الغرفة وقد سلّم أخيراً بمرارة وبطرف دامع أن كل ماحدث قد حدث، وأنها روح وقد آن قطافها ولا مفر من تقبل الأمر مهما كان قاسياً، خرج

تاركاً تعازيه الصادقة في مدخل البيت وامتطى صهوة حصانه ومكث قليلاً يتأمل بحرقة البيت الذي انتزع منه الأمان دون وجه حق محاولاً تجاهل الصراخ المفزع الذي شوه صفاء السكينة ثم انطلق واختفى في الظلام.

***

كشف الصباح عن مأساة تلك الليلة العنيفة، ولجت أشعة الشمس الدافئة خلال نوافذ غرفة الملك، كان يتفحص نفسه عن كثب ويهذب شعره قبالة المرآة وكأنه قد بدأ لتوه في الحياة، كان يشعر بسعادته اللامنتهية التي كانت تقابله في المرآة ولم يكن يدري بأن الدنيا قد عادت متنكرة في لباس صديق حميم، وأنها مكثت تترقب بدهاء الضواري المفترسة حتى سنحت فرصتها، حين أهدته بيدها اليمنى حلم عتيق للقاء حال بينهما المستحيل، لتصفعه بيدها اليسرى فجأة، فيفتح عينيه على بشاعتها ويكتشف ضخامة استمتاعها بإهانة مريديها، وبعد فوات الأوان يقر بأنها لم تكن في يوم من الأيام سوى العدو الأول لنا.

لطالما نجح باتوس في سماع الدنيا، لكنه فشل في فهمها، لطالما نجح في تحقيق أحلامه، لكنه فشل في استمرارها، ليس هو فقط، فربما نخسر الوقت نكتشف ما كان يجدر بنا أن نستغله به.

نزل باتوس إلى حديقة القصر متفائلاً، تحدو خطواته أنغام العصافير والنسائم العليلة ونبضات قلبه التي كانت تتسارع كلما تذكر لاريسا، كان يجتاز ظلال الأشجار متجهاً نحو مجلسه المعتاد فتنامى إلى مسامعه صوت لمشادة جديه بين أبنائه، وقف واستدار وراح ينتظر أحدهم كي يستفسر منه عما يحدث.

رأى اركسيلاوس وهو قادم نحوه ويشد آستيا من قفاه ويجره، وقد بدت على آستيا آثار الضرب المبرح، تفاجأ باتوس لما رأى وأصابه الهلع، وظل يترقب بصبر متهالك خشية انتكاسة يومه.

وقف اركسيلاوس أمامه وأحنى رأسه قائلاً بحسرة:

- ماذا أقول لك يا أبي.

- ما الذي حدث. قال ذلك مستجدياً ومدركاً عظيم جهل آستيا.

- لقد طعن استيا صديقك كارنئاد فأرداه قتيلاً.

في تلك اللحظات كان آستيا جاثماً على ركبتيه يحدق في قدمي أبيه فأغمض عينيه بقوة منتظراً المغبة الجارفة التي ستعود عليه من فعلته وفجأة سمع ضجة ارتطامه، رفع ناظريه، فإذا بأبيه ملقى على الأرض مغشياً عليه من هول ما سمع، هرع الحرس نحوه من كل حدب وصوب وظهرت فرونيما تولول من بين الأشجار وتتبعها وصيفاتها وطارت العصافير بعيداً وعمت الفوضي في الحديقة فتزاحموا على حمله وانطلقوا به إلى غرفته وكلهم يصيحون بطلب الطبيب.

***

حل المساء وكان السأم رابضاً على القصر، كانت ممراته هادئة جداً تكاد تسمع دبيب النمل فيها، وأشجار الحديقة جامدة، مريبة، كان أركسيلاوس متسمراً وراء باب غرفة أبيه، تنهد صبراً وجأشاً عله من خلالهما يجتاز تلك

اللحظات المضنية التي كانت تترقبه وراء الباب حيث كان أبوه مفترشاً السرير، تنزلق أنوار المصابيح على جسده بلاحراك، كان يشعر بأن أباه قد أمسى يتمنى الموت، يتمنى أن يتوقف نبض قلبه الذي لم يعتد، طوال السبعة عقود، على إهانات الزمن.

أخذ نفساً عميقاً جداً ومسح دموعه بظاهر يده ودفع الباب ببطء، كانت الغرفة شاحبة تعكس بجلاء حزن العائلة المالكة، جلس على السرير ومال إلى أبيه هامساً:

– عمت مساءً يا أبي. لم يستوعب الأب قدر حزن ولهفة ابنه واحتراقه كي يرد عليه ولو بإيماءه، غالب دموعه ومرر يده إلى يد أبيه المستلقية دون حراك وضمها مبتسماً في شجون:

– لا تزال يدك ناعمة. ثم راح بناظريه صوب عيني أبيه الغارقتين في التجاعيد، بحماسة، ظاناً بأنه سيفتحهما.

مرت الثواني ببطء قاهر وتلاحمت الدقائق ولم يغب عن عينيه ولا لحظة ودون جدوى، أومأ برأسه متأسفاً وعض على شفته السفلى على تلك اللحظة التي أوصلت أباه إلى هذه الحالة ثم نهض وأحسن تغطيته، وبينما هو خارج قابله استيا وهو داخل، قطب جبينه وأشاح نظره جانباً وخرج بخطى واسعة فيما كان استيا واقفاً ينهشه الشعور بالذنب.

بمجرد أن ابتعد اركسيلاوس جثم استيا على ركبتيه منهاراً قبالة السرير ماسكاً يد أبيه وراح يقبلها وانهال ينتحب بصوت عال.

في تلك الأثناء توقف اركاد وراء الباب عندما سمع النحيب وجلس على الأرض في الممر ضاماً كفيه على وجهه يجهش ببكاء عميق دون صوت.

ارتعشت عينا باتوس وكأنه كان يصارع جفونه ليرفعها واندلقت دمعة من عينه كشهاب يعبر الظلام دون أن ينتبه لها آستيا.

وقف آستيا حين نضج القرار النهائي في عقله دنى من أبيه وقبله في رأسه بحرارة وهمس قائلا بحزن شديد:

- وداعاً يا أبي... أنا أعلم بأنك ستسامحني يوماً ما..!

استدار يمشي مسرعاً وحين اجتاز الباب اصطدم بآركاد، فأصابهما الفزع، فهم استيا بركله وسبه ومضى وهو يلهث فيما وقف آركاد منكسر الفؤاد وقد برهنت إهانة آستيا له حتمية رحيله من القصر، دخل يودع مليكه وحالما رآه رق قلبه وارتعشت أوصاله وعدل عن قراره وانهار يبكي.

***

لملم آستيا حاجياته وآلامه وهرب خلسة من القصر، امتطى صهوة حصانه دون أن تكون له أدنى فكرة عن الوجهة التي سيتخذها في رحيله ودون أن يستشعر ما الذي سيقابله في الأيام القادمة فما كان متأكداً منه هو أن الحياة في قوريني لم تعد تنفعه بشيء، مضى يجتاز الأزقة الرفيعة الملتوية المتزينة بالأنوار والأزهار، اجتاز قنوات المياه التي لا تصمت موسيقاها ولاتتوقف عن الجريان وهي تتلألأ من انعكاس ضوء القمر وأنوار البيوت، اجتاز عمق الياسمين

الراكد في الشوراع، اجتاز أصدقاءه وأيامهم، تاركاً وراءه كل شيء وظاناً بأنه سينجح في إنشاء ذاكرة جديدة تخلو مما عاناه، ومما أفرحه، مما أحبه، ومما كرهه، متيقناً بأن الأوطان لا تتبعنا، كان لا يعي بعد أن ذاكرتنا هي موطن أوطاننا الحقيقي ولاوجود لوطن نجهل مكانه في ذاكرتنا حتى وإن كنا نعيش فيه.

تحت جنح الليل وبمسافة ليست بالبعيدة، كان هناك ثلاثة فرسان يتبعونه على نحو حثيث أينما يحل، تابعوا السير وراءه طوال الليل دون أن يشعر بهم حتى شرع نور الشمس بامتصاصلاالظلام. وقف استيا بجانب جرف مطل على واد سحيق ما يزال ظلام الليل راكداً فيه، ترجل عن حصانه وراح يقضي حاجته.

في تلك اللحظات ظهرت عليه من بين الأشجار الكثيفة المتشبعة بالظلام الأحصنة فجأة، أصابه الذعر ولاذ بالاحتماء وراء حصانه، ترجلوا من على أحصنتهم في صرامة وصمت واتجهو نحوه، فهتف بهلع " من أنتم..؟؟ ماذا تريدون؟؟ أتعرفون من أكون..؟"

أماط أحدهم اللثام فصرخ آستيا مرعوباً " جالينا.!! "

– نعم جالينا.. وهذان أخواي.. ولو كنت أدري بأنك جبان إلى درجة أنك تقتل عجوزاً.. لأيقظتهم.

استجداهم قائلاً:

– ماذا تريدون مني..؟؟

فأجابته والشرر يتطاير من عينيها كجنية:

- روحك.. إنك لاتستحقها.

رفع يديه إلى السماء قائلاً بندم وحرقة:

- لم أكن أقصد ذلك.. لم أكن أريد قتله.. جالينا.. أنت تعرفين ذلك.

هـزت رأسها، ثم التفتت إلى أحد إخوتها وأشارت له بالقبض عليه، وقالت باستحقار:

- أرني الرجولة التي كنت تتفاخر بها.. أرني النفوذ الذي تستفرد به.

حينما هم أخوها إليه هرع يجري على طرف الوادي فلحق الأخوان به وسرعان ما قبضا عليه وعادا يجرانه بينهما وهو يستجدي " سأعطيكم كل ماتريدون.. أخلوا سبيلي.. أعدكم.. اطلبوا ماشئتم " ولم تكن كلماته سوى زيت يزيد من حدة اشتعال قلوبهم على خسارتهم لأبيهم.

عادوا به ورموه عند قدمي جالينا وهي تجرد سيفها ببطء وثبات وعينا استيا تحدقان فيه بذعر شديد، وضعته على كتفه وصرخت:

- أين رجولتك.. هيا.. أرني رجولتك.. دعني أقتلك كي أكون فخورة بأن أبي قد مات على يد فارس.. وليس على يد حثالة الرجال.

قام منكسر الكرامة بعد أن فرّغت نفسه الشرف الذي كان يعتقد بأنه يمتلكه، وقال وكأنه يتكلم لأول مرة، لأنه في تلك المرة كان صادقاً بالفعل:

– هيا اقتليني.. هيا.. أنا لا أستحق الحياة. وراح يتأملها بمرارة فاغرورقت عيناه ألماً من حب كان يظن بأنه سيكون سبب للحياة وليس الموت، قال لها أحد إخوتها بنبرة متقززة:

– أجهزي عليه.. الشمس قاربت على الشروق.

رفعت سيفها فانقض عليه لينتزعه منها، وبينما هو يصارعها، سدد أخوها طعنة محكمة برمحه اخترقته من جنبه الأيسر حتى نفذت من يمينه. أخذ يتقهقر وعيناه شاردتان تتجولان في الأرجاء، ودماؤه تنهال على الأرض، ترنح قليلاً ثم سقط جثة هامدة وأصبح يلفظ أنفاسه الأخيرة، كانت عيناه متمسكتان بعيني جالينا إلى أن غـاب سر الحياة عنهما فأضحيتا شاردتين دون حراك كعيني سمكة.

حملاه على عجل ووضعوه على صهوة حصانه وربطوه بإحكام ثم راحوا يستدرجون الحصان بلطف حتى وقفوا به على حافة الوادي ثم دفعوه دفعة واحدة بقوة نحو الهوة فسقط الحصان وهو يستغيث بصهيله وبدأ يتقلب، تتفرقع أغصان الأشجار تحته وهو ينحدر بسرعة محدثاً جلبة في احتكاكه بالسفح الصخري حتى اختفى عن عيونهم في قعر الوادي، عندها، تلاشت أحقادهم لدى شروق الشمس وعادوا من هناك مطأطئي الرؤوس ومتجردين من نجس الانتقام وصهير الحقد، غير أن حزنهم بفقدان أبيهم لم يتوقف.

أن تقتل هو أبسط شيء يمكنك فعله طالما أن هناك مبرر واحد، وهذا المبرر هو أن يكون من تريد قتله يستحق القتل.

وأن تعفو هو أصعب شيء يمكنك فعله، لأنك لن تجد مبرر واحد يجعلك تعفو، هو أمر في غاية الصعوبة، لأنك حين تعفو لن تعفو عنك نفسك أبداً.

(١٢)

مرت الأيام وتعاقبت الأعوام، ونال النسيان مسبقاً بأنانيته المعتاده نصيب الأسد من كل ما مر.

كان الملك اركسيلاوس واقفاً عند الشرفة، تسلق الشيب كامل رأسه، وأخذ الزمن في شق التجاعيد واختراق نضارته. كان واقفاً في غرفة أبيه مطلاً من الشرفة على الغرب، وكعادته كان غارقاً في التأمل من هناك على أحد السفوح التي تقابله وراء سور المدينة راعية أغنام، وذلك المشهد كان قد ناهز العشرين عاماً، فـلم تتغير الراعية قط ولم تتغيب أيضاً عن ذلك المرعى.

كانت غرفة باتوس على حالتها، لم يطرأ عليها أيما تغيير سوى بعض الأغبرة التي كانت تكسو سطوح أثاثها، تطلع اركسيلاوس إلى سرير أبيه وراح يداعب بحزن بالغ ذكرياته هنا مع أبيه قبل عشرات السنين.

لقد توفي باتوس بعد دخوله في غيبوبة أخرجته من الحياة، وتوفيت لاريسا بعده بشهور، بعد أن انتهت من سماع وحفظ كل رسائله حيث كانت تقول بأسى لدورا وهي تقرأ لها الرسائل:

" كتب لي حين كنت ميتة.. وها أنا اقرأ ما كتب حين مات "

ظلت معه في غيبوبته، في أيامه الأخيرة، تغسل له، وتسرب له السوائل من فمه، كانت تسامره طوال الليل بطرف دامع، وتروي له مارأته عند الفراعنة، وكيف ظل في قلبها كالنبض دوناً عن الجميع حتى سلّم روحه بين أحضانها.

والعجيب في الأمر أنها استقبلت الخطب بنفس راضية على خلاف الشعب الذي جن جنونه بذلك النبأ القاسي ولم يحزنوا قط كحزنهم على موته، كانوا على قناعة ما بأن أمثاله لا يموتون فعاثت حالة التخبط والذعر حين نزع النبأ إحساسهم بالأمان وتعالى نواحهم وسرت فيهم الفوضى لأيام فموته كان بالنسبة لهم موت قوريني، وفي النهاية رضخوا قانعين بما حدث وتأزروا حتى جعلوه يحيا من جديد في ذاكرتهم، وبدل أن يبكوا موته شرعوا بالاحتفاء بحياته التي قدمها لهم ولمدينتهم ومضوا بروح الإمتنان يقيمون له الاحتفالات والأعياد ويحيون أيامه ومواقفه، فالبعض لا يموتون حياتهم فقط هي التي تنتهي.

توفي وكان لا يملك سوى حياة واحدة، جاب بها الأيام برفقة حلم، قطع البحار والجبال لأجله وكلما كان يتقدم في العمر كان الحلم يقترب، حتى حققه، وبعد أن حققه اكتشف بأنه لا يزال يملك عمراً، شرع في حلم آخر تركه منذ زمن بعيد ولطالما ظل مراوحاً مكانه، غير أن عمره نفذ قبل تحقيقه، فثمة أحلام لايمكن أن تنزل الواقع إلا على جثث حامليها.

توفي ولم تبقى من سيرته سوى أمجاده، ومن هيئته سوى شبابه، صُك على العملة القورينية، ونحتت له تماثيل عدة أظهرته بهيبة وطلة رائعة كانت تبدو أروع من الواقع، سميت به الشوارع، وبني له قبراً مهيباً فاخراً في الساحة العامة، كي يظل نبراس قوريني ومؤسسها، ومزار لكل من يشكك في عدم وجود الاستثنائيين في حياتنا.

بينما كان اركسيلاوس واقفاً يتحسس بمرارة مقاعد ذكرياته الغابرة، دخل عليه ابنه وولي عهده باتوس الثاني، لم ينتبه لدخوله حتى وقف بجانبه،

كان باتوس مثال لشباب المدينة، كان غاية في التميز والجاذبية، فتياً ذي طلة جميلة، ويشبه أباه كثيراً في صغره غير أنه كان أكثر أناقة وصرامة وجرأة.

تفاجأ أركسيلاوس بادي الأمر غير أنه ادعى بعدم اكتراثه، فبادره الابن قائلاً بأدب:

- لم تبق سوى أيام معدودة لافتتاح معبد الإله زيوس.

هز رأسه وقد بدا عليه السرور:

- هل انتهوا من تشييد معبد زيوس..؟

- أجل.. إنهم في مرحلة التبييض الآن.

- وما رأيك في البناء..؟

- لقد جئتك كي تذهب معي لتقيمه بنفسك.

- ليس اليوم.. سأذهب إلى هناك في الغد.

- كما تشاء..!

ران الصمت بينهما لبرهة، فأفرغت تلك اللحظات كل مايدور في نفسيهما، وبعد برهة همس اركسيلاوس بكلمات كانت مثقلة بالاشتياق والحزن:

- لطالما انتظر جدك يوم الافتتاح.. فلم أره مصمماً على إتقان شيء كتصميمه على إتقان هذا المعبد.

راح باتوس بنظره إلى السرير بحميميه فيما استطرد أركسيلاوس:

- إلام يرنو الشعب هذه الأيام..؟

أجابه بثقة وبصوت جهوري:

- إنهم يزدادون تشبثاً بحب مدينتهم كلما ازداد فخرهم بما وصلت إليه من رقي.

- بني - والتفت إليه وقد تجلت الجدية في بريق عينيه وأضفى الحزن ملامحه على نبرات كلامه:

- إن الذاكرة القوية لا تجعلك ترى الحقيقة فحسب بل تجعلك ترى كيف أصبحت الحقيقة على هذا النحو - وأجال النظر في النافذة وأردف - والذاكرة تعلمنا كيف أخطأنا لكنها لا تعلمنا كيف نتحاشى الخطأ مرة ثانية.. فلا تهمل ذاكرتك أبداً فهي الطريق إلى الحكمة: الرابط الوحيد بين العقل والعلم.. وكن حذراً دائماً مما تحب وعلى ما تحب.. واستمد ثقتك بالآخرين من ثقتك بنفسك أي كن واثقاً من نفسك اتجاه الآخرين لا واثق في أنفس الآخرين اتجاهك.. فالخطر فيمن يمتاز بأفكار جيدة وسريرة خبيثة والأخطر من هذا من يمتاز بسريرة طيبة ولكنه لا يفكر أبداً.. ولا تكترث من تذمر الشعب فهذا ديدنهم.. فالنقد ينتهي يوم وفاتك والناس جبلت على تأويل ما نقول على حسب نواياهم وليس نوايانا.. كما أكثر الأشياء جلباً للمشاكل هو الخوف منها.. لذا لا تتراجع عن أمر عقدت العزم على تنفيذه فإعراضك عن المضي للقيام به بسبب كلام الناس.. يكشف للناس أن الدافع لقيامك بذلك

الأمر كان كلامهم وليس قناعتك.. وهكذا ستحضى بحب الناس غير أنك ستخسر ولاءهم.

كان باتوس صافي الذهن، صامتاً عن التفكير، يتأمله بشغف، فيما أضاف اركسيلاوس متنهداً:

– إن عدم القيام بأي شيء يحتاج منك إلى جهد أكبر من لو أنك قمت بعمل ما.. فالحياة من غير حلم لا تتحقق.. والحكمة يا بني ليست في تحقيق الحلم.. الحكمة في اختياره.. وأن تعرف كيف تحلم هذا شيء وأن تعرف كيف تحقق الحلم هذا شيء آخر.. بوجود الحلم تكون الأيام أكثر ليونة لنشكلها كما نشاء.. ولكنها تتصلب فور تشكيلها فيستحيل إعادة تشكيلها لتدارك أخطائنا.. لذا خذ الوقت الأكثر في اختيار الحلم وليس في تحقيقه.. وليس بوسع أحد أن يمنحك السعادة.. فالسعادة تهب نفسها لمن أدخل الحب في تفاصيل حياته.. الطريق شاقة وطويلة..لكن الزمن لايكف عن تطبيب جراحاتنا.. الطريق متشعبة ومحيرة.. لكننا لن نختار سوى طريق واحد.. وما دمنا أحياء فلن نكف عن الحب.. فبه تتنفس قلوبنا.. وإن حدث وكرهنا بموقف فحتماً.. سنحب بموقف آخر.. والشمس لا تغيب.. الشمس تشرق في مكان آخر..

والنجوم لا تختفي.. فنحن من لسنا بحاجتها في النهار..والأرض رحبة واسعة.. ونحن من نمل المسير.. ونمل من التوقف أيضاً حين تشتد أخطاؤنا.. فكثرة الأخطاء في حياتنا تولد فينا الدافع للبقاء أحياء ليس حباً في الحياة.. بل لكي نكفر عن كل أخطائنا فيها ولهذا نتابع المسير – سكت قليلاً وتطلع في غضون ذلك إلى السرير فانتابته حالة جارفة من الاشتياق وقال بنبرة متحشرجة

مليئة بالحزن - إننا سرعان ما ننسى الأحياء الذين يتعايشون معنا ولكننا لا ننسى الأموات أبداً.. لأن الأموات في الحقيقة هم الذين أمامنا.. فليس الأمر على علاقة خاصة بالذاكرة ولا على استرجاع الماضي إنما هو استشعار المستقبل لأنهم سبقونا ونحن في طريقنا إليهم.. بحكم العادة لا يعجبنا الأحياء.. هم دوماً محط انتقادنا وتقييمنا إلى أن تختارهم المنية..

وعندها يكون لنا رأي آخر.. إذ يغدون مُثلاً عليا وأساطير نستمتع في روايتها متى ماذكرت أسماؤهم.. فنحن دائماً ما نفخر بصحبة الأموات أكثر من صحبتنا للأحياء.. لأننا لا نبتعد عن الأموات كلما عشنا بل نبتعد عن الأحياء.. أبلغهم بأن يجهزوا لي العربة.

كان باتوس يتأمله بفخر وانفعال وقال محاولاً إقناعه:

- هل غيّرت رأيك لمرافقتنا إلى المعبد..!

- كلا.. لم أغيره.. أريد أن أذهب في جولة تفقدية في الأرجاء.

كان يراقب الراعية بنهم واهتمام شديدين، لم ينجح في كبح إغرائها بتلك السكينة والرتابة التي واضبت عليهما لسنين حيث فتحت لديه شهية التعرف عليها، كان بمثابة السؤال وكانت هي على شكل إجابة، كان كسؤال أبيه أما هي فكانت كإجابة أبيها[1].

(١) جميع الشخصيات باستثناء باتوس واغلب الاحداث هي افتراضية.